أحاديثُ وأسمارٌ

الطبعة الأولى
1440 هـ / 2019 م

اسم الكتـــاب: أحاديثٌ وأسمارٌ
المـــؤلـــف: وليد عبد الماجد كساب
موضوع الكتاب: خواطر أدبية
عدد الصفحات: 208 صفحة
عدد المـــلازم: 13 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 00000 / 2018
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 000 - 0 :ISBN

التوزيع والنشر:

دار البشير للثقافة والعلوم

القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

©copyrights

جميع الحقوق محفوظة

دار البشير للثقافة والعلوم

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

وليد عبد الماجد كساب

أحاديثُ وأسمارٌ

دار البشير
للثقافة والعلوم

فاتحة

أعترف بأن للقارئ على الكاتب سطوةً كبيرةً، فعندما كتبتُ حلقات «المُريد» على حائطي الأزرق في الفيس بوك ابتداءً تحت عنوان «طيف الذكريات»؛ لم يكن يدور بخلدي أنني سأنشرها يومًا في كتاب؛ لكنَّ القرَّاء الذين أحسنوا الظنَّ بي دفعوني إلى نشرها دفعًا؛ بل كانت بعض الحلقات تُكتب تلبية لرغبة بعض المتابعين، ومواقف أخرى تُسجَّل عندما يُذكِّرني بها بعض المقربين الذين عاشوا جانبًا من الأحداث.

وعندما شرعتُ في نشر مقاماتي الأدبية تحت اسم رأيته مناسبًا؛ اعترض بعض من لا يزالون يُحسنون الظنَّ فأرغموني على تغيير الاسم رغم قناعتي به بحجة أنَّ به تجاوزًا كبيرًا، ولم أجد بُدًّا من نشر الكتاب تحت عنوان «مقامات ابن كساب».

ويوم أردتُّ تدوين مذكراتي في فترة البحث عن عروس ليفيد منها الشبابُ الذي يفتقد من يوجهه؛ اعترض بعضهم متذرِّعين بأنَّ هذا عملٌ غير لائقٍ من الأصل؛ لأن القرَّاء اعتادوا مني كتابةً جادةً على غرار «المُريد» و«التلوين البلاغي في الخطاب القرآني» و«تأملات في أدب الرافعي» وغيرها من الأعمال!

كذلك لم أتخيل يومًا أن أجمع أشتات ما كتبتُ عبر سنوات طويلة من مقالات ومنشورات في العالم الافتراضي بين دفتي كتابٍ واحدٍ؛ إذْ

كنتُ أرى ذلك ضربًا من العبث وشَغْل القارئ بموضوعات قد يكون في غنىً عن أكثرها؛ لكن إلحاح الأصدقاء في جمع هذه المادة كان أكثر من أي وقتٍ مضى؛ إذ رأوا فيها بعض فوائد قالوا إنها ستضيع في طيَّات الزمن، فاختلاف النهار والليل يُنسي، والحقيقة أنني وجدتُ لرأيهم وجاهةً؛ فلستُ أول من جمع متفرق ما كتب فقيَّده، ولقد عُرف هذا النوع من الكتب مع ازدهار الصحافة وانتشار الصحف والمجلات، وقرأنا مثل ذلك في وحي مصطفى صادق الرافعي ويوميات عباس محمود العقاد وأحاديث طه حسين!

وهذا الكتاب أمشاجٌ شتى جمعتُها على غير هُدىً، فمنها موادُّ لم تُنشر مسبقًا، ومقالاتٌ علميةٌ وصحفيةٌ نشرتُها في الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي، كما تضمُّ جانبًا من السيرة الذاتية وشهادات حول شخصيات عاصرتُها وتعاملتُ معها عن قربٍ؛ فمنهم الفقهاء والمفسِّرون والسياسيون والأدباء والأصدقاء وغيرهم ممن تيسر لي لقياهم في هذا العالم.

وإنك -عزيزي القارئ- إنْ عدمتَ الفائدة في بعض الكتاب؛ فلن تعدمها مطلقًا في بعضها الآخر، وإنْ أحزنك بعض ما حواه؛ فسيُضحكك بعضه ولا ريب، وأستميحك عذرًا؛ فقد كُتب بعض مادة هذا الكتاب على عجلٍ وغير رويَّةٍ؛ فلم يخضع للتَّشذيب والتنقيح على غير ما اعتدتُّ في سابق كتبي على قلة بضاعتها؛ فإن أمتنا أحوج ما تكون في هذه اللحظة الراهنة إلى التنوير الحقيقي في معركة الوعي الفاصلة.

وإنني على يقين كامل من أنَّ أمتنا تملك من مقومات الحضارة ما لا تملكه غيرها من الأمم؛ ولو قُدِّر لها أن تستعيد مكانتها التي تليق بها؛

لكانت مصدر خيرٍ وبهجةٍ لكل العالم، ولَعَلَتْ قيم التسامح والتعايش الحقيقي بعيدًا عن الشعارات الزائفة والادعاءات الزائغة التي لم يجْن العالم من ورائها سوى الدمار!

وأخيرًا.. فكلي أملٌ أن يكون هذا الكتاب على تواضعه نقطة ضوء تنير بعض هذه العتمة، حتى يأتي اليوم الذي نستعيد أمجاد أمتنا، ويومئذٍ يفرح المؤمنون!

والله من وراء القصد

وليد عبد الماجد كساب

القاهرة

غرة جمادى الأولى 1440 **هـ**

1 **يناير** 2018 **م**

من طيف الذكريات

العفاريت الزرقاء

(1)

شُغلتُ وأنا صغيرٌ بتأصيل مسألة رأيتها آنذاك من المسائل المحورية، لم أكن أتساءل عن وجود العفاريت؟ وهل هي حقيقة أم من نسج الخيال؛ بل غُصتُ إلى ما وراء هذا السؤال!!

كنتُ أُسائل نفسي عن ألوان العفاريت، وهل توجد منها عفاريت ذات لون غير الأزرق؟! أم تقتصر على هذا اللون فقط، تمامًا كالفئران التي لم نكن نعلم لها غير لون واحد؟ وإذا كانت لها ألوان أخرى فلماذا تقتصر الأحاديث في ليالي السَّمر على الزرقاء دون غيرها؟!

كانت أكثر أحاديثنا ونحن صغار يستحوذ عليها حديث العفاريت، فمنا من يحلف بالله -غير حانثٍ- أنه رأى عفريتًا ضخمًا، تتوقد عيناه كجمرتين تنضحان شررًا، وآخر يحكي عن أبيه وكيف لاعبته العفاريت بالليل وهو يرقُبُ البقرة في السَّاقية، فولَّى مدبرًا ولم يُعقب، وعن الضجيج الذي يصدر من الدَّوَّار العتيق ذي الحوائط الشاهقة، والأسقف الخشبية السامقة، وعن «كَارِتَّة» الباشا التي تتجول وحدها ليلا بلا حصان ولا حوذي.. ولا حتى حمار!

كانت الجِنِّيَّة هي الأخرى قاسمًا مشتركًا يدور حوله رحى الحديث، ذلك الرَّحى الذي لا يكفُّ عن الدوران، تمامًا كأرضنا الكروية، من ذلك ما

روته جدتي عن أُمِّها بسندها عن جدتها؛ أنها رأت الجِنِّيَّة على شاطئ الترعة، كانت تُمَشِّط شعر ابنتها المنسدل أمتارًا وقت القيلولة في «بؤونة»، على الشاطئ الأيمن من الترعة، كانت عيناها مشقوقتين طوليًا كعُرْوَتَيْ قميصٍ.

تقول الرِّواية إنها أسرعت من هول المفاجأة ولم تجرؤ على النظر إليها ثانيةً، فلما رجعت إلى بيتها ترتعد ظنُّوها محمومةً فدثَّروها، حتى إذا استقرَّتْ أنفاسها قليلًا قصَّت نبأها؛ فطمأنتها أمها قائلة: طالما أنك لم تنظري خلفك فلا ضَيْر، ولو فعلتِ لصفعتكِ صفعةً طاش لها لُبُّك، ولأصابتك لعنتها مدى الحياة!

لم تكن أمي من هؤلاء اللاتي يُجِدْن الحَكْيَ، ويمتلكن تشويق السرد وإبهاره، فكنتُ كلما طلبت إليها أن تقصَّ عليَّ شيئًا من هذا الحديث الشيق المخيف؛ أخبرتني بحديث المشرحة التي أتتها صغيرة؛ فسمعت بها صراخًا وعويلًا؛ فوقفت تسترق السمع؛ فجاءها الحارس فزجرها، وصرفها حتى لا تُصاب بأذىً.

* * *

كنتُ ألوذ بجدتي متى جاءت لزيارتنا، نُسْرِج المصباح فيتراقص لهبه طربًا لحديثها الماتع، وربما مال نحوها هو الآخر مستمعًا في نشوة.. وتدور كؤوس الشاي برائحتها الزكية.. مرة بالنعناع وأخرى بالليمون وهكذا حتى يهجم علينا النوم بشراسته!

كم حدَّثتني عن «بغلة العرش»، وعن عمها الذي سخَّر عفريتًا جاءه على هيئة حماره، فلما ركبه بدأ الحمار في الارتفاع؛ فلما رآه الرجل غرس في ظهره مِسَلَّة (إبرة كبيرة يخيط بها الفلاحون أَجْوِلتهم)، واستخدمه في

حمل الأثقال التي تنوء بمثلها الدوابُّ، وحمل عليه روث الماشية، وظلَّ على هذه الحال حتى انتهى موسم الحصاد؛ فأطلق سراحه.

* * *

وحدثني عمِّي عن «حلقة الزَّار» التي كان يراها إذا نام ليلًا في الأرض المجاورة للمقابر، وعن الأضواء المبهجة التي كانت تصحب الزَّار، كان أشبه بمولد كبير مكتظ بالناس، هذا هو العجب!! لكن الأعجب أنه كان يستمتع بهذه الحفلة الصاخبة، وصارت طقسًا من الطقوس التي يأنس إليها ولا يخشاها.

وسمعتُ النسوة يتحدَّثن عن القتيلة التي كانت تُلازم أحد الرجال هنا وهناك، تارةً تُقابله ماشيةً، وأخرى تتسلق الحائط؛

فصار يعنِّفها مرةً ويطردها أخرى!

ولله في خلقه شئون!

(2)

ارتعدتْ أطرافي الباردة فجأة، وتفصَّد عَرَقِي، وأحسستُ أن يدًا توشك على خنقي، كانت ليلة شاتية قُطعت فيها الكهرباء كعادتها، فالشتاء والكهرباء لا يجتمعان في ريفنا المظلوم، كأن الفلاحين لا يحتاجونها في شيء، فإذا حضر الشتاء غاضت الكهرباء حتى يجتمع عليهم قسوة البرد وظلمة الليل!

كانت ابنة عمي التي تكبرني بعدة سنوات تتفنن في إخافتي بالحكايات المُرعبة، لا أزال أذكر ضحكها الهستيري مستمتعة برؤية الرَّعب في عيني الذابلتين، فما إن تنصرف أمي وتخلو بي ومعي إخوتي

وأولاد عمي حتى تبدأ في السرد المخيف!

أخذت تحكي عن تلك البنت الصغيرة التي كانت نائمة فطرق أحدهم الباب ليلًا؛ فإذا به أبوها قد جاء مسرعا يشتهي الطعام، وبينما كانت تضع الأطباق على «الطَّبْلِيَّة»، رأت قدمه ظاهرة من الجلباب على هيئة «قدم خروف»، فخرجت مسرعة تستغيث بأمها النائمة، استيقظت الأم متثاقلة دون مبالاة، فقصَّت عليها البنت ما حدث!

قهقهت الأم وضحكت ضحكة شريرة، وإذا بها تقول للبنت: «يعني إيدُه كانت زي دي؟!»

كانت ابنة عمي تشير بيديها وأنا سارح بخيالي، فَسَرَت في جسدي النحيل رعشةٌ فقدتُ فيها بعض اتزاني، كأنني رأيتُ رَجُل الخروف «المُعَفْرَت»!

ما أروعها من حكاية، وما أروعها من مفارقة!!

فالأم أيضًا كانت عفريتًا له يد خروف وقدمه، وهو ما لم أكن أتوقعه!

* * *

رغم ما كنت أحظى به من أنصبة الرعب؛ صارت حكايات العفاريت عشقًا لي، وأصبحتُ مولعًا بكل ما يردِّده الناس في قريتنا، وبمرور الوقت قلَّت حدة الخوف شيئًا فشيئًا، وكان لوالدي -رحمه الله- الدور الأكبر في هذا، فقد كان يردد دائمًا أنه لا توجد عفاريت ولا يحزنون، وأن الإنسان لا ينبغي أن يعيش أسيرًا لهذه الخرافات، ولم تكن هذه الأقاصيص لتشغل بال جدي الشيخ جبريل الذي عاش للعلم يطالع كتب التفسير وينشغل بالفتوى لا سيما المواريث..

* * *

تشجَّعتُ يومًا بعد يوم، فصار بإمكاني أن أمُرَّ من زُقاق «الإبراشي» الضيق القريب من بيتنا، هذا الزقاق الذي سمعتُ عنه حكايات تشيب لها الرؤوس، لعل أقلها أن كثيرين من أهل القرية قد رأوه مسدودًا في الظلام، وقيل إن شابَّين كانا يسيران فيه ليلا فضرب بينهما بسور بلا بابٍ، وجرى كلٌّ منهما فَرَقًا في اتجاهٍ مختلفٍ!

أمَّا عن حكايات النَّدَّاهة فحدِّث ولا حرج، ففلانٌ الأخرس أصابته النَّدَّاهة، والأعمى كفَّت النَّدَّاهة بصره، وفلان توسَّن فلانًا بالليل لسقي الزرع، فخرجا من البيت فإذا بالمستيقظ يكتشف أن القادم لم يكن سوى النَّدَّاهة، وسمعتُ أن كثيرين كانوا يُحلِّفون القادم ليلًا إن كان هو هو أم هو النَّدَّاهة، لا سيما إذا كان ممن طال غيابه في السفر ونحوه، أو جاء في ليلة لم تكن متوقعة؛ فإن حلفَ دخل ومستقبِلُهُ في توجسٍ وريبةٍ حتى يزول عنه شكُّه!

وحكاية الرجل «أبو رجل مسلوخة» شغلتْ حيِّزًا غير قليلٍ من وجداننا، إذ كانت الأبواب القديمة مرتفعةً بعض الشيء مما يتيح للأطفال رؤية أصابع القادم أو مقدمة حذائه، وحدث أن أحدهم جاء من الحقل بعد ليلةٍ عمل طويلة، ونظرت زوجته كعادتها من أسفل الباب ومعها «اللمبة الكَشْف»، ثم أخذت تصرخ مرددة في رعب: «أبو رجل مسلوخة.. أبو رجل مسلوخة.. الحقوني يا عالم! انجدوني يا خواتي!!».

ولم يكن الرجل المسكين إلا «أبو العيال» قد جاء حافيًا متسخ القدمين من الطين بعد ليلة مطينة في الحقل لا تؤنسه إلا النجوم وصوت الذئاب!

(3)

صرتُ غلامًا يافعًا لا أخشى شيئًا، أتسكَّع في أزقة القرية ليلًا دون رهبةٍ، أسمعُ الحكايات فلا تزيد ضربات قلبي، ولا يتصبَّب جرَّاءها عَرَقي!

أمُرُّ على المقابر ليلًا فتكفيني آياتٌ من القرآن وأولها المعوذتان...

كان بيت عمي «علي» خارج نطاق القرية على مسافةٍ طويلة، فإذا أردتُ الوصول إليها؛ مررتُ لا محالة بالمقابر.. وليكن.. فلم الخوف؟!

إنها شواهد لآلاف الخلق الذين انقطعت حياتهم، فهل يملكون لنا ضرًّا ولا نفعًا؟!

وما سبب هذا الخوف غير المبرر؟!

أهو الصمت الذي يلف المكان فينشر الرعب؟!

أم هو جلال الموت الذي غلب الجميع بسطوته؟

ربما كل ذلك...

* * *

كانت ليلة صائفة لا مثيل لها في حياتي، أصرَّت زوجة عمي على أن أبيت ليلتي عندهم بدلًا من العودة متأخرًا، وألحَّ عليَّ أبناء عمي فأذعنتُ، وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث..

زوجة عمي «نصيحة» بسُمرتها الجميلة ووجهها البسَّام لا تكف عن صبِّ الشاي، والحكايات الشائقة لا تنتهي، والقهقهات تطعن سكون الليل المظلم، وعمي سارحٌ بخياله بعيدًا عنا..

لحظات وجاء من يخبره بأن «الحمارة» قد فكَّت عقالها وغادرت الحظيرة!

وقعت الواقعة!

لابد من اقتفاء أثرها والرجوع ظافرين بها، نعم هي حمارة كسلانة مغيظة، ولو رآها دارون لأقسم أن أصلها سلحفاة؛ لكن كما يقول الفلاحون: «حمارك الأعرج ولا سؤال اللئيم»؛ لكني بعدما خبرتها في الغدوة والروحة أكاد أجزم بأن سؤال اللئيم أفضل كثيرًا من ركوبها! فبئس الدابة هي!

خرجتُ وعمي نضرب في ستائر الظلام، نجتاز الترع والمصارف، وننظر أسفل أشجار الصفصاف تارة، وفي حقول الذرة تارة أخرى.. لا أدري لم كل هذا العناء؛ إنها لا تساوي شيئًا في سوق الحمير!

انقطعت أنفاسنا ولم يعد أمامنا سوى البحث عنها في المقابر!

يا لطيف!! المقابر!

دخلت مع عمي الذي لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلًا، مررنا بين المقابر نخبط خبط العشواء، كان يضرب بكشافه يمنة ويسرة، فنرى قبورًا متهالكة مفتوحة، وثعالب تفر بعيدا، وكلابًا لا تبرح أماكنها مكتفية بالنباح!

سرنا قليلًا أو كثيرًا، لا أدري..

وبينما نحن نسير سمعتُ صوتا ينبعث من المقبرة!

يا إلهي!

إنه ينادي عمي باسمه!

يا له من عفريت عليم، أويعرفُ الاسم أيضا؟!

«هات سيجارة يا علي».. هكذا تكلم القبر!!

يا خفي الألطاف! وهل يطلب الميت سيجارًا؟!

تُرى من الذي عكَّر مزاجه؟!

ومنذ متى لم ينفث دخانا؟!

تسمَّرتُ في مكاني لا أقدر على المشي فضلًا عن الوقوف، قدماي النحيفتان لا تحملاني، انقطعت أنفاسي، زادت ضربات قلبي، وكنتُ أظنها قد توقفت. وغاضت الكلمات في حلقي.. ولم أجد ما أقوله!

أسرع عمي فأخرج سيجارة لَف (الملفوفة يدويًّا قبل أن تطغى السجائر المميكنة)، فأشعلها ثم انحنى على باب المقبرة ليعطي السيجارة لساكن القبر..

زادت دهشتي وحيرتي ورعبي، لكن شفتي لم تنطق بكلمة، وكيف أتكلم وقد تيبَّس ريقي وانتفضت كل خليةٍ من جسدي!

أدرك عمي ما أنا فيه، فالتفتَ إليَّ وقال: ما تخافش، دي (....)!

تنفست الصعداء؛ فهي المـرأة التي أعرفها منذ زمن تتخذ من القبور مأوىً لها وسكنًا!

كيف فاتني هذا الأمر!

رغم ذلك بقي قلبي مضطربًا لا يسكن ولا يلوي على السكون!

ولله في خلقه شئون!

* * *

مرَّت السنوات فأيقنتُ أني كنتُ أحسن حظًّا من أصدقائي الذين ذهبوا ذات ليلة ليزوروا القبور ترقيقًا لقلوبهم واستحضارًا للموت؛ وكان لابد من البحث عن مقبرة مفتوحة يجلسون أمامها للتأمل، حيث يتحدث كلٌ منهم عن مشاعره في ذلك الحين؛ ثم بدا لصديق لنا أن يبالغ

في الاتعاظ فقرر دخول القبر حتى يخرج ويصف هذه التجربة!

لم يكترث «عادل» بنصيحة الأصدقاء وقرر دخول المقبرة رغم تشبثهم به؛ لكنه كان قد قرَّر ولا مناص!

في حركةٍ شجاعة أدخَلَ عادل قدمه اليمنى وأطلَّ برأسه داخل المقبرة فإذا بمفاجأة تنتظره!

لقد وجد هناك مَنْ يمسك قدمه صارخًا فيه!

بقية القصة معروف بالطبع؛ فقد مرق الأصحاب حُفَاةً دون «شَبَاشِب» تاركين صديقهم لمصيره المجهول، وانصرف عادل بعد أن توقَّف قلبه وأنفاسه قبل أن تدبَّ فيه روحه مرة أخرى!

لقد كانت هذه نفس المقبرة التي تحدَّثتُ عنها.. ونفس الساكنة!

ألا ليت الشباب يعود يومًا!

* * *

على ظهر الجَمَل

أدهش كثيرًا لاحتفاء عمي به، كان له بمثابة الصديق الوفي، أراه يمازحه، يربت على جسده الخشن، فيميل إليه برقبته في حُنُوٍ كغصن صفصاف، يتمسح به كصغير آنس أمه بعد طول غياب..

حتى التبغ الرديء، كانا يتقاسمانه سويًا!

نعم، لم يكد عمي يشرع في إشعال لفافته حتى يُسرع إليه، ينفث في خياشيمه بعض الدخان، ينتشي كمعاقر خمر ثملٍ، يتمايل كفتاة لعوب، فقد حاز ما يتمنَّى!

رآني عمي يومًا بين الحقول، أرقب زهور البرسيم كنتُ، بَدَت كأطفال مَرْحَى في فضاء فسيح!

ناداني بجدية كعادته..

لا أتذكر!!

ربما ترددت لبرهة، وربما لم يترك لي فرصة للتردد.. حمل جسدي الضئيل، وضعني على ظهره، ضرب بكفه على مؤخرته، ناديت عمي: لكن ليس معي عصا، وأين مِقْوَد الجمل؟! لم يجبني، أشاح بيده مبتسمًا! هو يعرف طريقه بالضرورة.

انتابتني قشعريرة سرت في أوصالي، كنت أرى كل شيء من عَلٍ، حتى البقر الذي كنتُ أهابه رأيته ضئيلا!

وقف الكلب يرمقني كأنه يحسدني، داعبتني غصون الشجر الخضراء، رأيتُ أعشاش الطيور!

أَمرُّ بالمقابر أرمق شواهدها، لأول مرة أراها هكذا، أهتز في حركة أفقية، أرقب مشيته، يقدم قدمًا ويُتبعها الأخرى في تُؤدة بالغة، كان قلبي يخفق من السعادة والخوف.. كان مزيجًا عجيبًا من المشاعر المختلفة!!

وصلنا «الأسفلت» فتوقَّف، نظر يَمنة ويَسرة، بدأ في اجتيازه، ولجنا القرية العتيقة، كانت البيوت قصيرة، بدت شاحبة اللون، أكوام القش تعتليها في غير نظام، وأعواد الحطب تبرز كسيوف مسنونة، كنت أتحاشاها ببراعة، رآني النسوة فتغامزن، وتضاحكن، سألنني: ابنُ مَنْ أنت؟! لم أجبهن، كنت أتناغم مع خطواته، أحس بوقع خُفَّيْه على الأرض كوسادتين من الهواء.

بدا منزلنا من بعيد، كان شعوري بالزهو يزداد اضطرادًا مع سعادتي، رأتني عمتي ففرحت، توقف الجمل أمام البيت، تفاجأت أمي، أطلقت صرخة مدوية كأنما جئتها مُكفنًا!

سامحها الله، أفسَدَتْ فرحتي!

كأنه أحسَّ بلوعة أمي، نزل على ركبتيه الأماميتين، فالخلفيتين، استقر على الأرض، استقرت معه أنفاسي، راحت أمي تُقبلني كما لو كنتُ عائدًا من الغزو!

كان الجمل يرقبنا عن قرب، قام فانصرف، وجلست أحكي لأمي عن رحلتي!

أيامٌ ليتها تعود!

* * *

الشيخ والكرنبة

كنت غلامًا ألعب الكرة في شارعنا في السنة الثانية من التعليم الثانوي إذ فاجأني أحد الإخوة واسمه «زين» بأنني مطلوب لخطبة الجمعة في عزبة مجاورة، ضحكتُ كثيرًا.. فأنا لم أزل صغير السن.. نعم كانت لي قراءاتي وكنت أؤم الناس في بعض الصلوات؛ لكني لم أرتق المنبر بعد!!

قدم الداعي بعض التسهيلات المغرية منها أن العزبة التي سأخطب فيها صغيرة ونسبة التعليم فيها ضئيلة، وأكثر المصلين سينامون بمجرد بدء المقدمة، وعندها قل ما شئت!

عبثًا حاولت التملص منه؛ لكنه علَّق الأمر في رقبتي قائلًا: «والله براحتك، خلاص الناس هتصليها ضهر وانت ابقى شوف هتقول إيه لربنا!!»

هزتني مقولته بشدة، وقررت الاستجابة راغمًا!!

* * *

ألقيت الكرة جانبًا، وسرعان ما دلفتُ إلى المكتبة فاستخرجت بعض الكتب وحضَّرت أول خطبة لي، كانت عن تحريم الظلم.

صحبني الرجل إلى المسجد؛ ثم ذهب إلى الوضوء؛ فتلقَّاني رجلٌ

كبيرٌ طاعنٌ في السن وطلب إليَّ أن أؤذن للصلاة!!

ابتسمت ابتسامة صفراء، وقلت له: يا حاج أنا اللي هخطب!! هو أنا هشتغل بَنَّا ومناول؟!

دخل صديقنا فأذَّن؛ وانتظرنا المصلين فلم يأت أحد!!

طال الانتظار.. ولم يدخل مواطنٌ واحد «يوحِّد ربه»، كانوا جالسين بالخارج يستندون إلى حائط المسجد!!

يئسنا من دخول زباين آخرين!!

عندها قال صديقي: لا بأس، إنَّ الجمعة حسب بعض الآراء الفقهية المعتبرة تنعقد برجلين وخطيب!!

صعدتُ المنبر.. لم يدخل المصلون إلا بعد أن جلست للاستراحة قائلًا حسب العُرف: التائب من الذنب كمن لا ذنب له، ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة!!

بدأ الزبائن في التدافع على الباب كأنهم إلى نُصُب يوفضون؛ لكن زاد الطين بلة أن أحد المصلين -وكان يعرفني- رآني وهو على باب المسجد فسُّر بي أيما سرور، وحيَّاني قائلًا: إزيك يا أستاذ وليد؟! شرفتنا والله!!

لم أستطع إلا الإيماء برأسي الكريمة آسفًا!

انتهت الخطبة!!

تلقيت عروضًا مغريًا من المصلين لتناول الغداء إلا أنني اعتذرتُ بشدة؛ فما جئتُ إلا خطيبًا!

هنا يترك الخِلُّ خليله!!

تركني زين وآثر أن يزور أقاربه، أو أن يتغدى عند حماته!!

وبدأت رحلة العودة!!

كان الوقت مشتيًا والبرد ينخر في جسدي النَّحيف، لا يمنعه جلبابي الأبيض الخفيف الذي كان من شروط الخطبة!!

قابلتني امرأةٌ تحمل حصيلة التسوق في مكتل (غَلَق) على رأسها!! وفي ظلها زوجها!!

كان أقصر منها قامة، يرفل في جلبابٍ طويل أكل عليه الزمان وشرب، كما كان يحمل كرنبة عملاقة تكاد تلفظ من ثقلها أنفاسه!!

رآني الرجل فبادرني متسائلًا في دهشة: الجمعة خلصت؟!

قلتُ: آه.. صلينا الحمد لله!!

رد عليَّ فضيلته وقال: «الله يخرب بيت الشيخ وبيت صحابه!!»؛ غلى الدم في عروقي وراودتني فكرة صبيانية، فما يمنع ان أحمل الرجل بكرنبته وأُلقي به في هذه الترعة الصغير؟ كان النظر إلى جلبابي وتحسس طاقيتي كافيين لأن أطرد الفكرة من رأسي وأمضي في طريقي.. نعم.. لم تكن الخطبة الأخيرة؛ لكنها كانت سببًا من أسباب إقلاعي عن الخطابة فيما بعد!!

الموت نومًا

البيت بطوابقه الثلاثة يغصُّ بالزُّوَّار، جاءوا من كل حدب ينسلون، تقاطروا ليشيعوا المرحوم إلى مثواه الخير، يقولون إنه كان رجلًا طيبًا ودودًا، لم يغيِّره غِنَاه الطارئ بعد سنين عجاف عانى فيها الفقر صنوفًا وألوانًا!

كانت صرخات النسوة تترى صعودًا وهبوطًا، كنَّ يتبادلن الأدوار باقتدار على وقع المقامات الصوتية، تمامًا كحفلات الأوبرا التي لا نفهم منها شيئًا، ثم لم يلبث الصوت حتى أخذ يخفت رويدًا رويدًا، وحلَّت

مكانه أحاديثٌ جانبيةٌ متنوعةٌ.

سؤالان شغلاه وهو مُسَجَّىً في انتظار الغُسْل: من أين جاء هؤلاء النسوة؟!

ليست هذه بأصوات أخواته، ولا أخوات زوجته الفرحات يقينًا برحيله! لابد أنهن مستأجرات!! ملعونة هي حماتي؛ تأبى إلا أن تُنغِّص عليَّ حتى في مماتي!

أمَّا السؤال الآخر الأشد إلحاحًا فكان: هل ستتزوج امرأتي أم ستكتفي بتربية أولادنا وإدارة تركتي وأعمالي؟! لا أظن؛

لقد تزوجت أمها بعد عامٍ من وفاة زوجها!! وهي كذلك!! لكن مَنْ يكون؟!

كاد الغيظ يفتك بكبده؛ لكنه جعل يسترجع ويُحوقِل، لابد أنه يظلمها بسوء ظنِّه، نعم لم تكن الحياة بينهما على ما يرام؛ لكنها تحب أولادها بجنون! يقينًا ستتفرغ لتربيتهم!! نعم نعم!!

تحرك مقبض الباب فانتشله من دوامته، أغمض عينيه -أو هكذا ظنَّ- وسرعان ما واربها قليلًا ليرقب الداخل؛ كانت زوجته وقد بدا عليها الحزن الشديد.. «أصيلة وبنت ناس»؛ بل «أصيلة فقط» .. قالها في نفسه خشية أن تسمعه!

وقتٌ طويلٌ مضى وهي تقلِّب الفساتين السوداء، تلبس أحدها وتقف أمام المرآة، ثم تخلعه وتقذف به على السرير بجانب المرحوم، وتجرِّب الآخر وهكذا دواليك!!

كاد المرحوم يفتك بفكَّيه من الاغتياظ، أزاح ثوبًا ران على عينيه، ها هي تقف أمام المرآة كما لو كانت في عرض أزياء!! تبًّا لك!!

دخلتْ أمها معصوبةَ الرأس كما لو كانت تُعاني صداعًا نصفيًّا.. صاح الرجل وقد احمرَّ وجهه غضبًا: ... وتبًّا لأمك أيضًا! هذه المرأة التي لم يحبها يومًا، إنها امرأةٌ شمطاء حمقاء!

– الناس وصلت يا بنتي وانت لسه مش عارفة تلبسي إيه؟! عامة بعد أسبوع واحد تخلعي الأسود ده وتعيشي حياتك، والحي أبقى من الميت!

– يا ماما ده كلام سابق لأوانه، ملوش لازمة دلوقتي – قالت هذا وهي تهم بالخروج بعد أن ارتدت فستانًا أسود هو الأفضل من بين كل الفساتين!

وقفت الأم تنظر في الدولاب باهتمام، وتقلِّب طبقات الملابس الثمينة، سمعها المرحوم وهي تتمتم بكلماتٍ فأصغى إليها فإذا بها تلعنه، تقول إنه كان بخيلًا، لم يدعها مرة إلى قضاء الصيف بأوروبا كما كان يفعل مع عائلته. زفر المرحوم زفرة كادت تفتك بجنبيه، لقد تذكَّر أنه أهدى «بنت العمشة» هذه خاتم «سوليتير» منذ أيام في عيد ميلادها الذي يحلُّ ثلاث مرات كل عام!! آه أيتها الحقيرة! حقيرة! حقيرة!!

انتبه المرحوم على صوت زوجته بجانبه «بسم الله الرحمن الرحيم.. مالك يا سامي؟!»

– أمك يا ستي!

– أمي؟! ما لها؟!

– أمك؟ أنا قلت أمك؟! أبدًا أبدًا.. يبدو إنه كان كابوس، كمِّلي نومك!

* * *

في ضيافة القذافي

قبل الثورة الليبية بأيامٍ قليلةٍ تلقيتُ دعوةً لحضور إحدى الفعاليات الثقافية؛ ورغم الإلحاح الشديد الذي صاحَبَ هذه الدعوة إلا أنني اعتذرتُ عن عدم تلبيتها، وقلت في نفسي: لا أدخلُ هذا البلد الطيب حتى يسقط نظام القذافي الخرِب الذي لم يزد أهله إلا خوفًا!!

عادت بي الذاكرة إلى الوراء قليلا.. وبالتحديد إلى شهر رمضان من عام 1426 هـ - 2005 م عندما تلقَّيت دعوة مماثلة من إحدى المؤسسات الليبية لحضور فعاليات مسابقتها الأولى للقرآن الكريم، فسافرنا مع بعض الزملاء في الحقل الإعلامي، وما إن وصلنا إلى المطار حتى وجدنا بانتظارنا مندوبين من المؤسسة -أو هكذا كنَّا نظنُّهم- ثم لم يلبثوا أن صحبونا إلى سيارة «المراسم» التابعة للرئاسة، حيث أقلَّتنا جميعًا إلى فندقٍ قيل لنا إنه أكبر فنادق العاصمة على الإطلاق.

كان الاستقبال الحافل والحفاوة البالغة مثار دهشتنا حتى بدأت الأمور تتضح شيئًا فشيئًا، فالمسابقة التي كانت تضم جنسيات عديدة من أنحاء العالم تنظِّمها مؤسسة تترأسها «عائشة» ابنة العقيد القذافي، ومن ثم فنحن بطبيعة الحال نُعامل كضيوف للسيد الرئيس أو القائد كما يُسمُّونه هناك.

كان كل شيء في الفندق يدعو إلى التوجُّس، فالسادة المخبرون الذين لا تجد عناء في معرفتهم يتناثرون في الطرقات، والمصاعد، والحمامات، أما

إذا فكرتَ في الخروج فلابد أن تَصْحَبَكَ سيارة مراسم (Jeep) بحارس شخصي يتبعك كظلِّك بداعي الحماية الشخصية.. وكان «إبراهيم» هو الموكَّل بي في تلك المهمة الاستخباراتية، وأهم ما يميزه قلة الكلام، وإن شئت فقل عدمه، وأذكر أنني سألته -وقد غلبني الفضول- عن قصرٍ أمامه حراسة كثيفة؛ فاضطربتْ دفة القيادة في يديه، ونهرني قائلًا: أرجو ألا تُشير إلى شيء؛ فهذا أمر يُعرِّضني أنا وأنت إلى الخطر.. كذلك لا تسألني عن شيء.. ويمكن أن تعتبرني مثلك في هذا البلد.. لا أدري.. لا أدري!!

أشفقتُ كثيرًا على هذا الرجل الذي ملأ الخوف نفسه فبدا على وجهه شاهدًا، لا سيما عندما عرفتُ فيما بعد أنه بيت القذافي، وحمدتُ الله أننا في مصر لم نصل إلى هذه الدرجة من الخوف المتولِّد عن الاستبداد؛ فالنكاتُ والطرائف السياسية يتناقلها المصريون بشكلٍ واسعٍ لا يُوجد له مثيلٌ في عالمنا، ورغم التشابه الكبير بين الأنظمةً العربيةً إلا أننا كمصريين نتميز بخفة الظل والرمزية الرائعة في هذه النكات. إذًا؛ فالكلام في السياسة مُحَرَّمٌ على الإطلاق،

ولو أردتَ الحديث مع أحدهم حولَ البلد وشؤونها فقد ارتكبتَ معلومًا من الجنون بالضرورة، وعرَّضتَ نفسك لمخاطر جمَّة لا يعلم مداها إلا الله.

* * *

من يمشي في شوارع ليبيا يدرك أنها بلدٌ ليست ككل بلاد العالم، فبدءًا من المطار الذي يُسميه القذافي بـ«مطار طرابلس العالمي» -وليس

الدُّولي حسب ما هو متعارف عليه في كل المطارات- ومرورًا بالشوارع التي تعُجُّ بشعارات جوفاء مثل: «اللجان في كل مكان»، «البيت لساكنه»، «لا ديمقراطية بدون مؤتمرات شعبية»، «المجالس النيابية تزييف للديمقراطية»، «من تحزَّب خان»، «المجلس النيابي حكمٌ غيابي»، «الفاتحُ أبدًا».. وغيرها من شعارات «الكتاب الأخضر» الذي وضعه «القذافي»، أو كُتب له، ليروِّج لنظامِ حكمٍ غير مفهوم -حتى له- يسميه بـ «الجماهيري» أي حكم الجماهير.

وصُورُ الرجل في الشارع الليبي ربما تكون أكثر من أرغفة الخبز، وإذا كُتب لك الدخول إلى مطعمٍ من المطاعم ولم تجد فيه صورة القائد فأنا على ثقة كاملة أنك ستأكل بشهيةٍ لا حدود لها، أما إذا وجدتَ الصورة -وهذا هو الأرجح بطبيعة الحال- فأنت حينئذٍ تحتاج إلى فاتح للشهية.

أما إذا جلست في نفس المطعم تعلوك صورة القذافي وأمامك التلفاز ينقل محاضرة له على الهواء في «القانون الدُّولي»، أو «علم الاجتماع» أو حتى في «علم الذرة» فسألتَ أحدهم عن التخصص الأصلي للقذافي فأجابك بقوله: «القائد موسوعي يعرف كل شيء!!» فلا أظن أن جميع فواتح الشهية ستُجدي معك نفعًا!!

* * *

بعد يومين تقريبًا من فعاليات المسابقة دعتنا اللجنة المنظمة إلى تناول الإفطار في منزل الأخ القائد «معمر القذافي»؛ فتذرَّعتُ بأنني أُعاني من ألمٍ بالمعدة، ومن ثم فلن أقوى على الخروج إلى أي مكان.. واستغفرتُ الله تعالى لهذه الكذبة التي لم يكن منها بُدٌّ، وكنت أُعزي نفسي بقولي: الكذبُ

خيرٌ من الإفطار على مائدةِ القذافي!!

خرجت الوفود إلى الزيارة، وبقيت وحدي أُطلُّ من شرفة غرفتي على البحر المتوسط يداعبني نسيمه البارد تارة، ويلفحني الواقع المأسوي لهذا البلد العربي المسلم تارة أخرى!!

المهم.. لا أدري كم مرَّ من الوقت وأنا على هذه الحال، حتى أوشك النهار على الزوال؛ فعاد الزملاء إلى الفندق؛ وكانت مفاجأة..

فلم يكن الأمر سوى زيارة لمنزل القذافي الذي قصفته الطائرات الأمريكية، وهو نفس المنزل المتهدِّم الذي خَاطَبَ الليبيين من داخله في أحداث الثورة ليؤكد لهم أنه في ليبيا وليس في فنزويلا كما يزعم «الجرذان»!!

* * *

في يوم الجمعة نزلت مهرولا إلى المسجد بصحبة الصديق الإعلامي راضي سعيد حتى ندرك الخطبة من أولها، وما هي إلا لحظات حتى ارتقى الخطيب المنبر، وبدأت مراسم الخطبة التي لم تستغرق أكثر من سبع دقائق، كان الرجل يقرأ الخطبة من ورقة طويلة يمسك بها، وكانت لغته تُنبئ عن صياغتها في العصر المملوكي أو العثماني على الأكثر، فالعبارات المسجوعة لا تُعبِّر عن واقع المجتمع الليبي ولا عن أي مجتمع في أيامنا هذه.. ولا تختلف كثيرًا عن خُطب العصرين الأُموي والعباسي.. وقيل إن الخُطب تأتي إلى الخطيب من الحكومة فيقرأها بلا زيادة ولا نقصان.

ولقد حزنت في نفسي كثيرًا، وزاد من حزني ما علمته من التضييق على الدعاة في هذا البلد الطيب؛ بل قيل إن الأجهزة الأمنية هناك تلاحق

الشباب الذين يُصلُّون الفجر بانتظام، على اعتبار أنهم الأكثر تدينًا أو تطرفًا، ومن ثم تتم ملاحقتهم.

وحكى لي أحد المصريين الذين ذهبوا إلى هناك بغرض العمل أن زميلًا له تعرض لـ «نتف لحيته» والصعق بالكهرباء.. كأن هذه الأنظمة البوليسية قد تواصت بهذا الأمر اللاإنساني!

* * *

وصلنا إلى اليوم الأخير من فعاليات المسابقة، وبدأت اللجنة في إعلان الجوائز وجاءت «عائشة القذافي» لتُلقي كلمةً باعتبارها رئيس الجمعية، ومعها كثيرٌ من مسئولي اللجان الشعبية، وكعادة المؤتمرات والفعاليات الكبيرة في الدول العربية اقترحت اللجنة المنظمة للمسابقة إرسال برقية «شكر وتأييد» إلى الأخ القائد بهذه المناسبة، التقط أحدهم -وأظنه من اللجان الشعبية- الورقة ليقرأ نصَّ البرقية، وما إن شرع الرجل في قراءتها حتى فزع الجميع وقوفًا كأنما لدغتهم العقارب، ظللتُ جالسًا ولم أقم من مكاني متظاهرًا بكتابة نص البرقية، والألم يعتصرني على حال أمتنا.. وتساءلت في نفسي: إلى متى ستظل هذه الوثنية السياسية وعبادة الملوك والرؤساء من دون الله، يخشاهم الناس كخشية الله أو أشد خشية؟!!

وفي الصباح حزمت حقائبي وعُدتُ أدراجي، غير أني لم أنسْ هذا البلد وأهله، وظلَّ يُراودني حلم تحريره من هذا الطاغية المجنون.. فهل يأذن الله بهذا الفجر القريب؟! «ويومئذٍ يفرح المؤمنون»..

* * *

صنعاء وإن طال السفر!

على متن الطائرة أخذت الطائرة تشقُّ عباب السماء بينما انشغلتُ بمطالعة بعض الصحف والمجلات اليمنية باهتمام بالغ .. كانت المجلات زاخرةً بالمشاهد الخلابة التي تنفرد بها اليمنُ .. فضلاً عن بعض الصور للمعالم التاريخية والأثرية.. حينئذ وددتُّ لو طُويت المسافات وأسرعت الطائرة حتى أشاهد بنفسي تلك الأعاجيب التي قصّ القرآن الكريم علينا جانبًا منها فأراها رأي العين.

مرَّت الدقائق ببطءٍ شديدٍ ولسان حالي يُردِّد:

يا ليلُ الصبُّ متى غَدُهُ؟! * أقيامُ الساعةِ موعدُهُ؟!

ولما كنت من ركاب الدرجة الأولى -طبعًا على حساب العمل- في الطائرة فقد جاءتني المضيفة تقترح عليّ بعض الهدايا التي تمنحها الخطوط اليمنية لضيوفها.. أخذتُ أقلب ناظريَّ في المنضدة المتحرِّكة، فإذا بها نماذج رائعةٌ لبعض الآثار اليمنية القديمة التي تنبئ عن حضارة لا مثيل لها، وفي النهاية التقطت نموذجًا فريدًا علمت فيما بعد أنه لـ «بيت الحجر» بصنعاء .. ذلك القصر العجيب!!

* * *

ما إن هبطت الطائرة في مطار صنعاء الدولي حتى أسرع الركاب نحو الباب في تدافع شديد .. غير أن الله أعانني رغم ضعف بنيتي على النزول،

وشد انتباهي للوهلة الأولى تلك البشاشة التي استُقبلنا بها من جانب الأشقاء اليمنيين، فالبسمة لا تغادر وجوههم .. إذن هي صورة مغايرة لما رأيته في كثير من المطارات الأخرى حيث يبدو «ضابط التأشيرات» مقطب الجبين، بينما يهتم الآخرون بتفتيشك من «الساس إلى الراس» كما يقول المصريون .. أما في اليمن فيكفيك أنك مصري!!

* * *

في طريقنا إلى الفندق .. فضّلتُ الجلوس في المقعد الأخير من السيارة لأطالع عن كثب شوارع هذه المدينة العتيقة .. يا إلهي! !ما هذه المباني الفريدة ؟!

وأي فنان أبدعها؟!

لم تطل دهشتي كثيرًا .. فقد قطع عليَّ «محفوظ» تلك الدهشة .. ومحفوظ هو سائق سيارة الشيخ الزنداني –رئيس جامعة الإيمان– الذي صاحبنا في رحلتنا من صنعاء في الشمال إلى عدن في الجنوب، وهو سائق فوق العادة، لم يُؤت نصيبًا وافرًا من التعليم النظامي؛ لكنه ذو ثقافة عالية، لا يقل في فصاحته وحكمته عن غيره من أهل اليمن، فكان خير مُرشد لي في تلك الرحلة السعيدة.

لاحظ محفوظ دهشتي من خلال مرآته الأمامية فابتدرني قائلا : يا أخي .. هذه قصور صنعاء التي تحدث عنها النبي –صلى الله عليه وسلم– عندما أعجزت صخرةٌ عظيمةٌ بعض الصحابة أثناء حفرهم الخندق، فجاء الرسول –صلى الله عليه وسلم– فضربها ضربة عظيمة أسقطت ثلثها، وخرج منها نور؛ فكبّر الرسول –صلى الله عليه وسلم–

؛ فكبر أصحابه، ثمَّ الثانية فالثالثة، وقد أخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أنه رأى بالنور الأول قصور الشام، وبالنور الثاني قصور فارس، وبالنور الثالث أبواب صنعاء.

الله أكبر!!

* * *

حين وصلت إلى الفندق المخصص لإقامتي في شارع «حِدَّة» الشهير، لم أكن أطمع في أكثر من «حمّام بارد» أستعيد به بعض نشاطي الذي تضاءل كثيرًا أثناء هذه الرحلة .. فكان لي ما أردت .. ولكن طارقًا بالباب جاءني ولابد من الرد على مضض!

كان الأخ علي الأكوع - رئيس جمعية المنشدين اليمنيين - وقد جاء باشًّا كعادته... إنه يدعوني إلى حضور عُرسٍ يمني في إحدى أحياء صنعاء، ولكنني بادرته بالاعتذار، فأنا لم أعتد الأجواء الصاخبة لما تُحدثه في نفسي من سأم، وفي أذني من ألم ..

ولكنه أصرَّ على موقفه لا سيما وأن العُرس ستُنشد فيه الأناشيد الإسلامية .. إذن فلا بأس من الحضور لنشنف آذاننا ببعض هذه الأناشيد التي افتقدناها كثيرا في حفلاتنا .

ما إن وصلنا إلى ساحة العرس حتى اعتراني شعور غامر بالانبهار .. فكل شيء يبدو جميلًا .. الأنوار .. الأهازيج التي يرددها المنشدون .. وبدا العرسان - وكانوا ثلاثة -في ثياب ذهبي قشيب انعكست عليه أشعة القمر الفضية لتزيده إشراقًا .. ولم ينس ثلاثتهم أن يتزينوا بالجنابي (الخناجر) المذهبة التي بدت لامعة هي الأخرى أكثر من أي شيء آخر ..

أما الأخ الأكوع فقد أخذ ينشد بعض الأناشيد؛ وللحق فقد كان صوته نديًا، مثلما كان صوت بطانته التي كانت تردد خلفه .. وكان صليل سيوف اللاعبين يشق الآذان باعثًا بعض الرهبة في نفسى .. ولما لا فأنا لا قبل لي بمثل هذه السيوف المصقولة التي تلمع كالبرق الخاطف، ولم يكن يكدّر صفو هذا العُرس سوى زخّات الأعيرة النارية والقنابل اليدوية التي يعرفونها باسم «الطَّمَش» أو «الطِّمَاش» وكأنني في حرب وليس في عُرس.

ثم انتقل الحفل إلى «المجلس» وهو «نـُزُل» أو قاعة احتفالات كبرى حيث يجلس الضيوف لتخزين «القات» وشرب الشاي المخلوط باللبن، بالإضافة إلى قطع الحلوى التي يتفنن اليمنيون في صنعها.

حقًا .. كان العُرس بهيجًا .. وكانت الليلة أروع ما يكون!!

* * *

كثيرًا ما سمعت المقولة التي تُنسب إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- «الحكمة يمانية» وما كنت أعلم ما تعني، حتى جئت إلى اليمن، فبدءًا من «محفوظ» ومرورًا بـ «سائق التاكسى» و«بائع الفاكهة» و«القمّاش» و«موظفي الفندق» حتى «الصبية في الشارع» يملكون من الحكمة والأناة ما يؤهلهم للدخول كأطراف في حديث مع الطبقة المثقفة دون رهبة أو خوف.

ومن الأمور المعتادة عند زيارتك لأحد المزارات أن تجد من يتطوع من اليمنيين للقيام بدور المرشد السياحى .. والملفت للنظر أن هؤلاء يحيطون تمامًا بتاريخ بلادهم بحيث يمكن لأي منهم أن يسرد لك تاريخ المزار وأهم الأحداث المرتبطة به عبر القرون.

* * *

ما إن تجتاز بوابة صنعاء القديمة حتى ينتابك شعور عميق بالأصالة، ويعود بك إلى الأيام الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ!!

أشعر بعطش شديد!!

الشمس هنا حارقة، ولكن الفضول وحب الاستطلاع كانا كافيين لأن أتابع السير هنا رغم هذا الجو الملتهب، كان عليَّ أن أستأذن صاحبي في أن يُحضر لنا بعض زجاجات المياه المعدنية، ولكنه بادرني بقوله : ولماذا لا تشرب الزبيب؟!

كان ردى عليه سريعًا: ولكن الفقهاء ..

لم أكمل عبارتي؛ فقد قاطعني قائلًا: إن المشروب ليس إلا منقوع الزبيب، وهو ليس بمـُسكرٍ كما تظن!!

ونزولًا على فتوى المرافقين، وربما رضوخًا للعطش شربت منقوع الزبيب، فكان من أجمل المشروبات التي تناولتها في حياتي قاطبة. وعلمت فيما بعد أن الزبيب يُنقع في الماء مدة لا تقل عن 12 ساعة بعدها يكون جاهزًا للتناول .

كانت بصنعاء القديمة وحدها ما يربو على الأربعين سوقًا حتى وقت قريب، فمنها المِعْطَارة (العطارة) كما يسمونها في اليمن- و«سوق الزبيب» و«سوق البُن»، و«سوق القات» وهو نبات ينتشر في أرجاء اليمن يمضغه أكثر اليمنيين بشكلٍ يوميٍّ، وسوق التمر والحبوب، والحناء، ثم هناك سوق «الجنابي» أو الخناجر التي يراها اليمنيون من تمام الرجولة ويهتمون جدًا بها.

أما أصحاب الحرف فلهم أسواقهم فهناك سوق النجارين، وسوق الخياطين، والحدادين، وغيرهم من أصحاب الحرف.

* * *

أنت في اليمن .. فأنت في حاجة دائمة إلى كاميرا تسجل هذه اللحظات التي يندر أن تعيشها في أي مكان آخر..

جميل أن تُشاهد جبال اليمن وهى تحتضن البيوت فتحنو عليها كأم رءوم، والأجمل أن ترى المنازل تتسنم قمم الجبال الشاهقة .. شاهرة سيف التاريخ وعبق الماضي في وجه الحداثة الزائفة.

وللإثارة في هذا البلد نصيب وافر، سيما حينما أقلّتني سيارة راحت تنثني وتتمايل على تلك التضاريس الوعرة كأنها غزال رشيق!!

لكن المرعب أن تستقل سيارة في ظل هذه التضاريس غير المألوفة؛ خاصة إذا كنت من سكان البلاد السهلية، وكان «محفوظ» يقود السيارة باقتدار يُحسد عليه، بينما يرقبني عبر المرآة فيرى مزيجًا من الترقب والانبهار، كنت أنظر إلى الجبال المرتفعة فيصيبني شيء من الدوار، فما ألبث حتى أنظر إلى السهول فإذا هي بعيدة سحيقة ..

طالت بنا الرحلة- وربما ظننتها هكذا- فتذكرت قول الله سبحانه وتعالى على لسان بعض أهل اليمن - سامحهم الله- ﴿(ربنا باعد بين أسفارنا)﴾ كانت تأخذني بين الفينة والأخرى سنة من النوم .. غير أنها لم تطل في وقت من الأوقات .. فقد كانت تعاريج الطريق الكثيرة تباعد بين الجفن والوسن .. وربما لأن العين أبت إلا أن تبصر كل شبر من هذا البلد العجيب الذي يقصر الخيال عن تصوره.

بعد أيام قضيتها في صنعاء وبعض المدن الأخرى مثل «إب» و«تعز»، كان لابد من زيارة عدن قال لي محفوظ : إن الوضع سيختلف كثيرًا في عدن !! فلما سألته عما يعنيه بكلامه هذا اكتفى بقوله: سترى بنفسك!!

وحُق لمحفوظ أن يقول ذلك، فقد بدا الأمر مختلفًا كثيرًا، فعلى

العكس من صنعاء وإِب وتعز، كانت الأرض في عدن سهلية يندر أن ترى فيها الجبال؛ أما المباني فالفرق بينها وبين صنعاء شاسع، وليس للفن الإسلامي وجود في هذه البنايات التي تسلَّلت إليها المدنية الزائفة فشوهتها وأساءت إليها كثيرًا..

* * *

بعد أيام قضيتها في صنعاء وبعض المدن الأخرى مثل «إب» و«تعز»، كان لابد من زيارة عدن قال لي محفوظ: إن الوضع سيختلف كثيرًا في عدن !! فلما سألته عما يعنيه بكلامه هذا اكتفى بقوله : سترى بنفسك!!

وحُق لمحفوظ أن يقول ذلك ، فقد بدا الأمر مختلفًا كثيرًا، فعلى العكس من صنعاء وإب وتعز، كانت الأرض في عدن سهلية يندر أن ترى فيها الجبال؛ أما المباني فالفرق بينها وبين صنعاء شاسع ، وليس للفن الإسلامي وجود في هذه البنايات التي تسللت إليها المدنية الزائفة فشوهتها وأساءت إليها كثيرا ..

«الجنابية» أو «الجنبية» مفرد «جنابي» وهى خنجر معقوف يُصنع من الحديد، ذو مقبض غالبًا ما تُصنع من العاج أو قرون الحيوانات وعظامها ، وتُثبّت الجنابية في جراب خشبي، وأحيانا فضي حسب الحالة المادية للشخص ، ويُعلق الجرابُ في حزام يُثبّت في وسط الشخص ، وينظر المجتمع اليمنى إلى الجنابية على أنها من مقومات الرجولة التي لا يُستغنى عنها بحال من الأحوال ، وتستخدم للدفاع عن النفس ضد ما

قد يتعرض له الشخص من مخاطر لا سيما في تلك التضاريس الوعرة التي يتميز بها اليمن.

واليمنيون حريصون على أن يحمل أولادهم الجنابية منذ الصغر مثل الكبار تمامًا ، وهذا إن دل فإنما يدل على المكانة الاجتماعية للجنابية في الفولكلور اليمنى.

وتتفاوت أسعار الجنابيات حسب مكوناتها ، فهناك المقابض المطعمة بالذهب والفضة وغيرها بالأحجار الكريمة ، ومن ثم فإن السعر يبدأ من بعض المئات من الريالات حتى مئات الآلاف، ومن الجنابية يمكن معرفة المكانة المادية للشخص سواء أكان ميسورًا أم متوسطًا، أو كان حتى معسرًا.

* * *

تعز.. المدينة الحالمة.. قيل عنها: بقدومك إليها يتراءى لك ثلاث أحوال لها : مستلقية على سفح جبل صبر، أو متكئة برأسها على الجبل الحاني عليها بكل تواضع وإجلال، أو أنها فضلت أن تكون منخفضة عنه ليتلاءم البشر على العيش معها أكثر؛ فتوفر المأوى والحضن الدافئ لكل قادم ومقيم فيها.. أهلها مشفقون عليها.. تحنّ إليهم أكثر منهم ... تحضن الإنسان لإنسانيته؛ فالغريب صاحب دار، والمقيم ودود سليم الطباع.

نحن الآن في مدينة العز، ومدينة النجوم، والمدينة الحالمة -كما يطلق الكثيرون عليها- إنها مدينة تعز؛ تلك المدينة التي كانت العاصمة السياسية للدولة الرسولية لمدةٍ تزيد عن مائتي سنة...

كان لهذه المدينة دور محوري عبر التاريخ اليمني وخاصة في العصر الإسلامي الأول؛ فحين ظهر الإسلام وأتى وفد اليمن إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأفئدتهم الرقيقة وقلوبهم الحانية؛ ونظرًا لأهمية اليمن ودورها المحوري، فقد جعل -صلى الله عليه وسلم- ولاتها من كبار صحابته أمثال على بن أبى طالب، وأبو موسى الأشعري، وخالد بن الوليد، ومعاذ بن جبل- رضي الله عنهم أجمعين، وحين جعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- معاذ بن جبل -رضى الله عنه - واليًا على اليمن حدد له مدينة «الجند» القريبة من «تعز» مقرًا لولايته...

❊ ❊ ❊

لا شيء هنا يملأ المكان هيبة وعظمة مثل جامع الصحابي الجليل معاذ بن جبل -رضي الله عنه- بمدينة الجند؛ إذ يبدو الجامع كأنه سحابة بيضاء ملقاة على الأرض..

ويعتبر هذا المسجد أقدم مساجد اليمن على الإطلاق، أسسه معاذ في السنة السابعة أو الثامنة أو التاسعة للهجرة على اختلاف الأقوال، وقيل في السنة السادسة للهجرة، وهو أقرب الأقوال إلى الصواب؛ ويعد بذلك ثالث مسجد في الإسلام بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي، وفى ذلك يقول العالم الأثري الإيطالي الجنسية «بول» وهو أول من اكتشف مخطوطات مسجد الجند عام 1972 م؛ يقول: تعتبر مدينة صنعاء القديمة بما فيها الجند في الحقيقة تحفة تاريخية وأثرية فريدة ورائعة، وتأسر الألباب من النظرة الأولى إلى نمطها المعماري القديم والقدير، وطريقة المحافظة على هذه المدينة ممتازة ورائعة.

❊ ❊ ❊

طي النسيان

منذ زمن، كلما استعملتُ فرشاة أسناني قلتُ معاتبًا نفسي: ألم يأن لك أن تشتري فرشاة جديدة بدلا من تلك المتهالكة التي تؤصِّل للتسوس، وتؤرخ للفقر؟!

أليس من سبيل إلى أنبوب معجون جديد وقد أوشك أخوه على النفاد؟!

ثم لا ألبثُ قليلا حتى أخرج إلى الصالة لبعض أمري، فأجد أنبوبًا جديدًا من ماركة (سيجنال 2 أو 3 – لا أذكر) وقد لفَّه الحزن من كل جانب!

فإذا دخلتُ إلى مخدعي راعتني فرشاةٌ أنيقة ممددة تشكو الهجر والنسيان فأدهش!!

يا إلهي! هل اشتريتُ الفرشاةَ ونسيتُها؟! فلتنتظر حتى أشتري لها رفيقًا!

أُقرر النزول من الطابق السابع؛ أدخل المصعد، أسجِّل الرقم؛ لكن المصعد لا يتحرك.. أفتح الباب، أُغلقه، أُعيد التسجيل.. دون جدوى!

بعد محاولات عديدة أكتشف أني أضغطُ على ذات رقم (سبعة).. يا إلهي!!

إنه الدور الذي أنا فيه.. ليس هذا فحسب؛ لكن يتكرر الأمر في الصعود حيث أضغط الرقم (صفر) وأمكث قليلًا أو كثيرًا!

وهكذا تتسرب الأيام ويلازمني النسيان في الحجرة تارة وفي الصالة تارة أخرى!

والآن الآن، جمعتُ بينهما، وبقيت ذاكرتي أشتاتا، كالغربال لا تمسك شيئًا!

* * *

لبعض من أعرفهم قدرات خاصة في التذكُّر، قدرة تفوق قدرتي على الأكل في أكثر اللحظات جوعًا.. حتى إن بعضهم لا يعجزه حكي حوار له مع آخر -ربما يربو على الساعة- بقضه وقضيضه، وبما يحويه من وقف وابتداء وهمهمة وقهقهة؛ بل.. وسعال أيضا!

منذ نعومة أظفاري ووالدي يدرك الأمر جيدًا، حتى عندما كان يرسلني في حاجة، كان يكتب لي ما يريده في ورقة، كأنما يخاطب أصم، ولا أنسى الخرائط التي كان يخطها بيمينه لوصف مكان لا أعرفه!

والأدهى من هذا، عندما كان يُحمِّلني رسالة شفهية، قبل ازدهار الاتصالات على هذا النحو المرعب، لا يتجاوز بحال عن تكرار الرسالة على مسامعي مثنى وثلاث ورباع، لكن أن يبلغ به -رضي الله عنه- أن يطلب مني إعادة الرسالة على مسامعه فهذا ما كنت أضيق به!

ربما ظن بعض القراء أنني أبالغ كثيرًا في حديثي عن هشاشة ذاكرتي، والحقيقة أن الجعبة ملأى بالمواقف المضحكة والمحزنة في آنٍ واحد!

عندما كنت في مرحلة التعليم الثانوي كنت أؤم المصلين في صلاة التراويح، فكان أكثر ما يؤرقني عدُّ الركعات، فكنت عقب كل ركعتين ألتفتُ إلى المؤذن وفي عينيَّ سؤالٌ قلِقٌ عن المتبقي من الركعات؛ فيشير بأصابعه!

ثم إني اهتديتُ إلى طريقة لوذعية؛ فقد عثرتُ على بعض نَوَى

التمر فاصطفيت منه ثمانية، ووضعتها أمامي في القبلة؛ فكنت عقب كل ركعتين أنقل اثنتين من اليمين إلى اليسار!

ثم قللتها بعد ذلك إلى النصف، فكنت أنقل الواحدة بعد كل ركعتين!

الأغرب في الموضوع أنه كانت هناك استراحة بعد الركعات الأربع الأولى، وهو ما يعني أنها كانت فرصة لتنشيط الذاكرة؛ لكن وما حيلتي؟!

قريب من هذا أنني لم أعتمر وحدي قط؛ بل كنتُ دائمًا في صحبة بعض الأصدقاء حتى أضمن العدَّ الصحيح للأشواط حول الكعبة والمسعى، وأذكر أنني فقدت حذائي في الحرمين غير مرة، وإن أنس لا أنسى يوم كنت في المسجد النبوي -على ساكنه أفضل الصلاة والسلام- عام 2011، أدَّينا صلاة الظهر ثم رُحتُ ألتمس حذائي دون جدوى، لم يكن هناك إلا أن أخرج إلى ساحة المسجد الخارجية بحثًا عن الرفاق، وكانت القدمان تسيران على ما يرام حتى وطئتُ فاصلًا ملتهبًا بين مظلتين؛ فوالله لقد كان اللهيب فوق طاقتي كما لو كنت أسير فوق الجمر؛ فجعلت أصرخ صراخ المجذوب حتى نجدني أحدهم فاشترى لي «شبشبًا»!

والحمد لله على عطيته!

* * *

أتذكر والذكرى مؤرقة يوم دخلنا اختبار النحو في الفرقة الأولى من الطلب الجامعي وصدمني هذا السؤال: اذكر مواضع فتح همزة «إن» وكذا مواضع كسرها!!

كدتُ أصرخ لولا أن ربط الله على قلبي، فالمواضع أكثر من أن تحصيها ذاكرتي الضعيفة، تركتُ السؤال وبدأتُ بحل غيره، ثم عدتُ إليه وجعلتُ أعصر ذهني عصرا، فتتبعت بعض الآيات القرآنية لاستخراج القاعدة مثل «ما إن مفاتحه»، «ألا إنهم من إفكهم».... وهكذا

فجأة!!

مرَّ أستاذ المادة بجانبي؛ فقلت له: ألا يوجد سبيل آخر إلى اختبارنا في التطبيق النحوي بعيدًا عن الحفظ بدلًا من هذا «التسميع»؟!

قال سيادته: «إن شاء الله الامتحان الجاي، وهنعتبرك مجدد علم النحو»؛ قلت: «العفو؛ هذا شرف لا أبلغه»؛ فانصرف الرجل يسب ذلك اليوم الذي عهدوا إليه فيه بالتدريس!

وكان لنا بعض الزملاء لا يُجيد قراءة بيت مما يحفظونه مضبوطًا بالشكل؛ فإذا تجرَّأ أحدنا وطلب إليه أن يصحح نطق الكلمات قال: ليس هذا هو المهم، لكن المهم الكتابة في ورقة الامتحان!

وحدث مرة أن أحدهم دخل حصة للتدريس بالمرحلة الإعدادية وقت أن كان يلتمس دراسات عليا في كلية التربية؛ وطلب إليه مدرس المادة تحضير درسٍ عمليٍّ هو قصيدة «نيلنا العظيم» للشاعر الراحل محمد التهامي، وكانت المفاجأة أنه كتبها هكذا: «نيلونا العظيم» بالواو! واووو!!

* * *

في الملعب

منذ صغري وأنا مرتبط بالكِتَابِ ارتباطًا مَرَضِيًا؛ وهو ما جعلني معزولًا نسبيًّا عن الحَيِّز الذي أعيش فيه!

لم أجد بين أقراني من يُشاركني هواية القراءة؛ فصرتُ بمعزلٍ عن الجميع تقريبًا.

مرَّت الأيام ولا أنيس لي سوى الكتاب، وصارت كل الأيام يشبه بعضها بعضًا، وذات يوم أحسست بالملل فقلتُ في نفسي: ولِمَ لا أشاركهم اللعب؟!

جربتُ كثيرًا من الألعاب فوجدتها من «الهَيَافة» بحيث لا تصلح، فلم يك بُدٌّ من لعب الكرة!!

سعد الوالد بهذه الخطوة الجريئة التي ستخرجني من قمقم القراءة، وذهبتُ إلى مركز الشباب بزيٍّ رياضي ربما لم يلبسه المدرب نفسه.. غير أنه رحَّب بي.

* * *

دقَّت ساعة العمل.. وحمي الوطيس.. وفقد العبد لله بوصلته!!

حالة من الإجهاد والتوهان معًا.. قاتل الله الأنيميا!!

يبدو أن المدرب مشكورًا كان (عامل خاطر للوالد) فألهبني تشجيعًا وحماسةً؛ ولكن دون جدوى!!

بعدها بأيام أُقيمت دورةٌ رياضيةٌ خارج القرية؛ فلم يجد مركز

الشباب العدد الكافي لتمثيله في الدورة؛ لأن اللاعبين كانوا يقومون بواجب «مكافحة دودة القطن».. ومن ثَمَّ اضطروا آسفين إلى ضمِّي وسط حالة تذمُّر وضجرٍ خفيَّة من بقية اللاعبين!!

لم تمر لحظات من بداية المباراة حتى سنحت لي فرصة ذهبية شبيهة بفرصتي مجدي طلبة وجمال عبدالحميد في كأس العالم 90 بإيطاليا!!

توالت الفرص وتوالت الإخفاقات.. وجماهير الفريق الآخر تشجعني على هذه الإخفاقات.. كنت أبحث عن هواء للتنفس فلا أجد.. وكلما طلبتُ التغيير رفض المدرب..

كنت أحس وقتها بإحراج شديد وحالة من الممنونية تجاه الرجل!! ظننتُ أنه ينتظر مني الأفضل ولكن هيهات.. فأنا أعلم بنفسي منه! ثم قلت في نفسي: لابد أنه في حرجٍ من الوالد الذي أوصاه بي خيرًا!! فلابد إذًا من رفع الحرج .. ولن ألعب الكرة مرة أخرى!!

مرَّت الدقائق كدهور كاملة، ثم حانت لي فرصة أظن أنني كنت فيها والعارضة فقط.. ولا أتذكر أين كان الحارس!!

ووقف الجمهور المنافس على قدمٍ وساق، وحبس اللاعبون والمدرب أنفاسهم!!

تقدَّمت في ثقة تفوق ثقة علاء ميهوب وطاهر أبو زيد وربما أشرف قاسم!!

اكفهرَّ وجه المدرب.. واستشاط اللاعبون غضبًا!!

لقد ضاعتْ الفرصة!!

كانت الفرصة الأخيرة للفوز، وتبدَّدت معها أمل الفريق في الفوز، وتبخر الحلم القروي الجميل!!

انتهت المباراة، وهممتُ بالذهاب إلى المدرب لشكره على روحه الرياضية وصبره عليَّ؛ ولكن اكتشفت مفاجأة..

همس لي أحد اللاعبين بأن والد اللاعب الاحتياطي الثاني قد أرسل إليه أخاه فسحبه من «قفاه»؛ وبالتالي لم يكن هناك احتياطي!!

أيامٌ جميلة ليتها دامت!

❊ ❊ ❊

المجاز في حياتنا

كنتُ طفلًا صغيرًا أجلس بجوار والدتي، بينما كانت السيارة تشق طريقها وسط الضباب إلى سوق الأحد، جلس النسوة يتحدَّثن في أمور الدنيا.

كان سائق السيارة هو القاسم المشترك لحديثهن؛ لكن عبارة استوقفتني، إذْ قالت إحداهن عنه في سياق كلامها: «ده إيده مخرومة»!

فجَأَتْني العبارة؛ ورُحتُ بفطرة الصغير أجتهد في النظر إلى يديه بتمعنٍ، فلم أستطع رؤيتها جيدًا، نزلنا من السيارة وكنتُ حريصًا على أن أدفع الأجرة بنفسي حتى أرى ثقب يده! غير أني وجدتها سليمة لا ثقوب فيها؛ فبادرتُ والدتي: ألم تقل النسوة إنَّ فلانًا يده مخرومة؟! لقد نظرت إليها فإذا هي سليمة!

ضحكت أمي وقالت: إيده مخرومة يعني مُسْرف، صَرَف ميراث أبوه كله على الأكل والشرب!

وحدث مرة أن سمعت أثناء مروري في شوارع القرية امرأتين ترغيان بصوت خافت؛ فقالت إحداهما للأخرى: يا عيني يا ضنايا دي بنت فلان اتأتَّى عليها أمر الله؛ فهرعت إلى والدتي فسألتها؛ فانقبضت، ولم تجد ما تجيبني به، حينها أحسست أن في الأمر عيبًا، ومرت الأيام فعلمت أنها كناية عن الوقوع في الفاحشة!

من هنا بدأتُ التعرف على المجاز في ريفنا المصري، ومرت السنوات سريعة، وأصبحتُ مفتونًا بما فيه من أساليب مجازية، فرأيت كيف يقولون

عن «الثعلب» أبو الحسين «يقصدون الحُصين»، وعن «العِرسة» اللي ما تتسماش!

* * *

ومنذ أيام قليلة استوقفتني في قريتنا امرأة طيبة ممن كانت تأنس إليهن أمي -رحمها الله- فسألتني عن حال أبنائي؛ فطمأنتها، ثم سألت عن حال إخوتي فطمأنتها خيرا؛ فدعت لي دعاءً لم أسمعه في حياتي، قالت: «ربنا يجعلك رِدّ لهم».. ويبدو أنها استوحت الدعاء من قول الله تعالى على لسان موسى -عليه السلام- «وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي»، ودَّعتُ السيدة الطيبة وسرعان ما تذكرت أبي -رحمه الله- حين عاد من عمله وقت الظهيرة تعلوه بسمة عريضة، فلما سألناه عن السبب قال إنه سمع حماة هذه السيدة تخاطب حفيدتها قائلة: «اتلمي يا بنت بدل ما أطويك كطي السجل للكتب».

وأظن أن جدتي قد صقلتني كثيرًا في هذا المجال، فكلما جلستُ إليها أفاضت عليَّ من هذه المجازات، فمثلًا جاء طفل مع والدته يزورنا، ثم حدث نزاع بينه وبين ولدي؛ وأصرَّ الأول على طرد الثاني من المنزل؛ فما كان من جدتي إلا أن قالت: «هو يعني فار الغيط يطرد فار البيت؟!»؛ فالمجاز جزء لا يتجزأ من تراثنا الشعبي، ولا يُتصور أن يخلو كلامنا من المجاز الذي فيه تطرية للسامع، وهو -بلا شك- يحتاج إلى دراسات علمية عديدة تتناول الأمثلة والتعبيرات المتداولة.. ولعل الله يقيض لذلك من يقوم به!!

* * *

من وحي القبور

اتفقت العائلة على هدم المقابر القديمة وإعادة بنائها خشية انهيارها، وما إن فُتحت المقابر حتى رأيت ما تشيب له رؤوس الولدان..

كنا عدة أُسر أبناء عمومة..

فمنا من جاء يلتمس عظام أبيه أو أمه!

أو ملتمس بقايا أخ له أو زوجة..

رأيت من يمسك خصلات من شعر أمه ويبكيها، ومن ينظر إلى كفن زوجته وتسيل دموعه حرَّى!

تعرَّفت إلى جمجمة جدي الشيخ جبريل -رحمه الله- الذي لازمتُه سنين، وقلت: سبحان الله!! كم حَوَت هذه الجمجمة من علم ومعرفة؛ ولكن مصيرها هو التراب، وبقي العلم النافع في تلاميذه!

رأيتُ ما تبقَّى من عظام أختي الهادئة الرحيمة التي كانت تذوب حياءً، فارقتنا في ريعان الشباب وتركت وليدة لها لم تتجاوز عدة أشهر، وخلَّفت وراءها أحزانًا تنوء بها شُمُّ الجبال، ولا يزال والدي يذكرها وينتحب لها حتى وافاه الأجل

وهذه رفات عمي الحَيِيِّ الذي لم أر أشد منه حياءً!

وهذه زوجة عمي التي أحببتها كأمي؛ وربما أكثر. أذكر حين أرسلوا في طلبي من الإسكندرية وهي تحتضر.. أسرعتُ إليها فألفيتها تعاني السكرات.. ضممتها إلى صدري كثيرًا وبكيت.. قرأت لها ما تيسر من

القرآن ثم فاضت روحها، كانت أختها جالسة بجانبها تقول: ألم أقل لكم إن روحها كانت معلقة بوليد! رحمك الله يا عمَّة.. أحببتني حتى آخر لحظات حياتك!

نظرتُ في أطلال المقابر فتصاغرتْ في عينيَّ الدنيا، وأحسستُ بالحماقة والغفلة، أهذه نهاية كلِّ هي؟! أهنا يُوضع الصغير والكبير؟ والغني والفقير؟! أهنا يكون مصير كلِّ حيٍّ؟!

وصدق من قال: ولها يعمل من لا عقل له!

❊ ❊ ❊

النَّقدُ المجاملاتي

لم نعْتَدْ في بلادنا أن نتحلَّى بالروح النقدية التي تنظر إلى الأمور بعين الإنصاف بعيدًا عن الأهواء، ولا يمكن أن تخلو البتة من المجاملات الجوفاء!!

أذكر أنني حضرت لقاءً لأحد الأساتذة ممن أعرفهم ويعرفونني، وتفاجأ الرجل بي فرحب بي أيما ترحيب؛ لأن هذا من وجهة نظره لمسة وفاءٍ مني؛ بل قال لي -وكنا في أمسية رمضانية-: إيه رأيك نتسحر مع بعض في الحسين بعد الأمسية؟!

فقلت: وهل هذا يحتاج إلى سؤال يا أستاذنا؟!

تكلم الرجل فخلط خلطًا شديدًا وأعمل عقله بداعٍ وبغير داع ولوى النصوص بتعسف شديد.. كان يجامل المكان الذي دعاه ويعزف على أوتاره ما يتناسب واتجاهات هذه المؤسسة.. تعجَّبتُ كثيرًا من انقلاب الرجل على نفسه!

مرَّت الدقائق وأنا في حيرة من أمري.. هممتُ بالمغادرة؛ لكني تذكرتُ السحور. فمن للسحور ولمقهى الفيشاوي وليالي الحسين الرائقة؟!

وجاء دور التعقيبات فسمح لي ممتنًا؛ عقَّبت عليه بأدبٍ شديدٍ وبمقدمةٍ عن محامده ومآثره، ثم ناقشتُ ما ورد في كلامه بهدوء وبلا تجاوز، وأظهرت بعض أخطائه العفوية والمتعمدة؛ وكانت طامةً كبرى

للرجل، فقد أُوتي من مأمنه. هذا الولد الذي دعاه إلى السحور يناطحه ويُسبب له كل هذا الحَرَج؟! لقد رأى الرجل أن مجرد ردي على كلامه كبيرةٌ لا تغتفر وكان من الأحرى أن أُمجِّد ما قاله بدلًا من هذا النقد اللاذع الذي لم يتوقعه مطلقًا!!

انتهت الأمسية، وسلَّم الرجل عليَّ سلامًا باهتًا وقال لي مغيظًا: «طيب عايز حاجة يا أستاذ وليد؟! نراك على خير إن شاء الله!»

وهكذا عوقبت بإلغاء عرض السحور لمجرد النقد، وتبخرت آمالي العريضة في أرز بلبن من المالكي وبرادٍ من شاي الفيشاوي!!

وهكذا يُجرَّم النقد في ثقافتنا.. ويُرحَّب بـ(النقد المجاملاتي)!

❊ ❊ ❊

المجذوب

ما إن ولجتُ المسجد حتى وجدتُه مستلقيًا على ظهره خلف الباب، أشار بيده إليَّ، ظننته لأول وهلةٍ يريد إعانته على القيام؛ لكنه اكتفى بمصافحتي وعلى وجهه بسمة خَجْلَى غاضت خلف ركام السنين..

أُقيمت الصلاةُ.. نظرتُ إليه فإذا هو حامل حذاءه وخارجٌ، قلتُ: سبحان من منح العقل وحَجَبَه!

شغلني الرجل في صلاتي، وحدثتني نفسي حديثًا طويلًا، لكنني كنت حريصًا على ألا أستغرق في الفكر؛ لأن هذا يعني أنني سأزيد على الناس ركعة أو أنقص، وربما ظنُّوا ظنَّ السوء أن زيادة الأسعار هي السبب!

انتهيت من الصلاة وخرجتُ؛ فألفيته في الشارع، كان متعبًا من حرارة الجو، وبدا عليه الإرهاق شديدًا، اقتربت منه وسألته إن كان قد أكل أم لا، قال وهو لا يكاد يُبين: عندك لحمة؟!

ابتسمتُ وابتسم أحد المارة قائلا: لحمة؟! إنت لسه فاكر اللحمة يا عمنا؟!

قلت له: ربما وجدنا بقية مما ترك آل البيت في الثلاجة!

وصلنا المنزل وسألتُ الوالدة إن كانت هناك بقية من لحم الغذاء؛ فقالت: نعم، يبدو أنه كان ما تبقى من نصيبها، سريعًا قامت بتجهيز الطعام؛ لكن إلحاح الرجل على الطعام لم ينقطع!

استقبل الطعام بشغفٍ كأنما عاد من مجاعةٍ، وسرعان ما أخذ يلتهم الطعام في نهم شديد، ثم .. توقف، ترك الطعام ولم تفلح معه محاولاتنا، قرر الانصراف بعدما طلب قميصًا أسود، أعطيتُه أزرق داكنًا؛ نظر إليه باشمئزاز ثم حمله وانصرف!

انصرف المجذوب ولم ينصرف طيفُهُ من فكري، وقلتُ في نفسي: نعم، العقل من أكبر نعم الله علينا، وعلى قدره يكون التكليف، لكن ألم يكن من الأفضل أن أُخلق مثل هذا الرجل الذي رُفع عنه التكليف؟!

أليس العقل هو الذي يُشقيني وأمثالي ممن يدَّعون العقل والفكر؟!

أليس هؤلاء الذين حُجبت عقولهم أوفر حظًا حيث لا سياسة، ولا فكر، ولا اقتصاد، ولا صراع من أجل المال والسلطة ولا حتى وطن؟!

أوليس يمرُّ هؤلاء المجاذيب إلى الجنة بلا حساب ولا سابقة عذاب فتُردُّ عليهم عقولهم ويتمتَّعون بما حُرموا لذَّته بينما أوقف أنا يوم تدنو الشمس من رؤوس العباد فأُسأل عن النقير والفتيل؟!

إذًا فما فائدة عقل يجرُّ على صاحبه الويلات ويزُجُّ به في أسفل الدركات؟!

استعذتُ بالله وشكرتُ الواهب على عطيته، ودعوته ألا يجعلنا ممن أشقتهم عقولهم؛ ورُحتُ أُردد دعاء حجة الإسلام الغزَّالي: «اللهم إني أسألك إيمانًا كإيمان العوام!».

* * *

علامَ تتقاتل الطيور؟!

بعيدٌ منذ فترة عن القراءة والكتابة، ومتخفِّفٌ من كل ما يثير حفيظتي، ومشغول بشيء آخر وجدتُ فيه بعض سلوتي!

هناك ..

في حظيرة الدجاج!

وجدتُ نفسي مع مخلوقات أخرى، كنت أظنها أنقى من الإنسان، فإذا بي أتفاجأ بأنها مملكة كعالم الإنسان فيها ما فيها من الظلم ولغة القوة!

الطيور الكبيرة تستعرض قوتها على الصغيرة، ولا تعترف إلا بلغة القوة!

أذكر أن دجاجتين نفقتا متأثرتين بجروحهما البالغة!!

إي وربي.. بجروحهما البالغة!

تمامًا كضحايا الحروب والمعارك البشرية!

فعلامَ تتقاتل الطيور؟!

أتراهم يعرفون الضغائن والإحن؟!

أم إنَّ فطرتهم تلوَّثت بمعاشرة البشر منذ أن اختُرعت الحظائر وضُربت حول الطيور الأسوار والأبواب؟! وكانت من قبل تسيح في الملكوت لا تختلط بالبشر ولا يختلطون بها!

البط الصغير يخشى الدجاج الكبير الذي يتسلط عليه؛ ويعيش في معاناة حتى يكبُر؛ عندها فقط يصبح مرهوب الجانب محترمًا من سائر

الدجاج، إذ بإمكانه أن يدهس الدجاج مهما عَظُم حجمه وارتفعت قامته!

الكتكوت الصغير يكون هدفًا للكبار الذين يسومونه سوء العذاب! تمامًا كما البشر؛ فالصغير مهضوم الحق غير مهاب الجانب، تنوشه أيدي الكبار!

عزلناه في مكانٍ يأكل وحده حتى كبُر..

مرت الأيام سريعة، وجاء الديك وقد امتلأ حيويةً ورشاقةً؛ صار بإمكانه أن يشاكس الدجاج الكبير ويزاحمهم جناحًا بجناحٍ!

الصراع على الطعام من صفات الطيور هي الأخرى، التزاحم على الزاد والماء أمر تلحظه بسهوله، وبَطَرُ النعمة مع كثرة الطعام والحرص عليه مع قلته!

ما أشبه المالك بعضها ببعضٍ!

حتى أنت يا عالم الطيور؟!

* * *

فسادٌ بنكهة إسلامية

فكرة بائسة جدًا أن تكون ترسًا صغيرًا يدور ويدور من أجل تغذية التروس الكبيرة وتوفير الدولارات لها وضمان حياة كريمة!

ومن نكد الدنيا على الأمة وجود منظمات إسلامية كبيرة ذات ميزانيات ضخمة يذهب أكثرها على مكافآت الكبار الشهرية وبدلات ظعنهم وإقامتهم، وفي المؤتمرات التي لا طائل من ورائها.. بينما يُلقِمون الموظفين الصغار فتات موائدهم ويمنُّون عليهم!

أمَّا عن مرتزقة الخارج في الجاليات الإسلامية المحسوبين على الإسلام -وبعضهم لا يُصلي أصلًا- فحدث ولا حرج، فهؤلاء لا مهمة لهم إلا أن يُفرغوا جيوب الأغرار من المسلمين ويتلقوا الأموال الطائلة من المنظمات والحكومات المشبوهة حتى يكونوا كالدُّمى في أيديهم يُحرِّكونهم كالعرائس الخشبية!

إن فساد المنظمات والكيانات الأخرى أمرٌ قد يبدو طبيعيًّا جدًا؛ لكن المشكلة الأكبر أن هؤلاء يُحسبون على الدين الإسلامي الحنيف!

كثير من هذه المؤسسات انهارت بالفعل، وبعضها تتنكَّب الطريق وتنتظر مصير الأولين والآخرين ممن لم يُخلصوا لفكرتهم فضلوا وأضلوا!

الصورة ليست قاتمة كلها؛ لكن هناك تجارب قليلة ناجحة صادفت إخلاصًا في نفوس القائمين عليها فحققت نجاحات كثيرة رغم محدودية إمكاناتها المادية والبشرية!

عدة تجارب مؤسفة كنتُ شاهد عيان عليها لما يربو على عقدٍ ونصف من الزمان في المنظمات الدولية والفضائيات الدينية، ربما يأتي الوقت المناسب للحديث عنها أو حتى كتابة مذكرات تكشف كثيرًا من الزَّيف والدَّجل الذي يمارسه بعض المحسوبين على الدين افتراءً عليه!! قد ضلوا وما كانوا مهتدين!

❊ ❊ ❊

غرفة جَدِّي

كلما زادت سخونة الجو أو برودته تذكرت تلك المندرة أو المنظرة .. تلك الغرفة الكبيرة التي ظلَّ يأوي إليها جَدِّي جبريل -رحمه الله- حينًا من الدهر رافضًا السُّكنى في هذه العُلب الإسمنتية الكالحة..

البرودة سمتها في الصيف.. كأنما تأوي إلى صفصافة وارفة الظلال تتدلى فروعها في حُنوٍ لا مثيل له..

أما شتاؤها فدفيء يجعل من سمر الليالي حتمًا مقضيًا..

لا أزال أتذكرها جيدًا.

واسعةٌ رحبةٌ لا تشعر فيها بالضيق.. حيطانها الطينية سميكة جدًا.. تعلوها عدة طبقات من الجير .. ربما كان أبيض، أو بقية من لون يميل إلى الزرقة فتغير مع تعاقب الليل والنهار الجديرين بتغيير كل شيء..

أمَّا نوافذها فمرتفعة تسمح لرجل بالوقوف فيها.. ولكنه مأوى (القُلل) الرطبة التي وقفت في تَبرُّج يذهب بالألباب..

منها الرفيع ومنها السمين.. ومنها الطويل ومنها القصير، ومنها الأبيض وكذا الأحمر .. تمامًا كفتيات صغيرات يمرحن في بركةٍ من ماء غير آسن!

ليس في حياة طفل أجمل من المرح في هذه الغرفة المتسعة.. سعيدًا يؤنسني حفيف قدميَّ الدقيقتين على أرضيتها الخشبية التي اتسقت

ألواحها في تناغم بديع.. لم أكن حينها أعلم أن اسمه في البندر (باركيه)!

الغرفة خاليةٌ إلا من مصاطب احتضنت حوائطها في حميمية بالغة.. تزينها قطع من (الكِليم) بديع الألوان .. أما الأرض فكانت تجاور فيها كل حصيرة أختها في تآزر..

هناك.. في ركن الغرفة كان الموقد.. أو الكانون.. لم تكن له وظيفة سوى عمل الشاي والتدفئة في ليالي الشتاء الطويلة..

على الأرض كان جدي يجلس بعمامته ونظارته.. ومسبحته القهرمان الخضراء.. وبجواره عصاه التي أحببتها.. كثيرًا ما كنت أعبث بها فلا ينهاني.. كم كان سمحًا هينًا لينًا!!

بعض كتب قديمة يغلب عليها الفقه الحنفي، تفسير الجلالين.. كنت أمعن النظر فيها بعيني طفل منبهر.. لم يدر بخلدي أنه سيأتي عليَّ يوم أشقى بهذه الكتب.. وأنعم بها أحيانًا كثيرة..

كنت أسأل نفسي: لماذا يتحلَّق هؤلاء الناس حول جدِّي في هذه الغرفة أو البهو المتسع؟!

أي علم يحصلونه؟!

أمَا يكفي أن يتعلموا القرآن؟!

ولماذا يُشقون أنفسهم بالخلاف بين الأئمة؟!

كم تهفو نفسي إلى مندرة كهذه تخرجني من أسر المدنية إلى بساطة الريف القديم!!

فهل إلى مردٍّ من سبيل؟!

* * *

الأوتوموبيل

خرج رجلان من قريتنا يقصدان بندر إيتاي البارود بمحافظة البحيرة.. كانت «الدَّلْتا» - بفتح الدال قطارٌ صغيرٌ- قد غادرت المحطة الفرعية قبل أن يصل الاثنان إليها..

لم يكن أمامهما إلا قطع الطريق سيرًا على الأقدام!!

لم يمشيا كثيرًا..

أدركهم «أتوموبيل» فِخِم -بكسر الفاء والخاء- وطلب منهم الأفندي أن يركبا معه!!

- اتفضلوا اركبوا!!
- العفو يا بيه، ألف شكر!!
- اتفضلوا .. اتفضلوا!!
- ما يصحش يا بيه والله!!
- بقولوكوا اركبوا.. ولا أمشي (قالها بعصبية(

تسابق الاثنان لركوب الأتوموبيل الذي لم يروا مثله قط..

كان أقصى ما يمكنهم ركوبه «عربية كارُّو».. أو «كَارِتَّـة» على الأكثر!!

ودار الحديث على استحياء من الطرف الثاني:

- إنتم من شنديد؟!
- إيوه يا بيه..

- رايحين فين؟!
- تييه يا بيه (يقصدون: إيتاي البارود)!!
- تعملوا إيه في إيتاي؟
- هنشوف واحد تعبان في المستشفى؟
- بتزرعوا إيه؟
- قمح يا بيه ورز ودرة.
- ما بتزرعوش فاكهة؟
- لا يا بيه؛ ما نعرفش غير الزراعة دي.
- عندكم راديو؟
- راديون واحد يا بيه في البلد كلها.
- بتسمعوا فيه إيه؟!
- الشيخ رفعت يا بيه وأي حاجة تانية يعني.
- وعبدالمطلب؟
- مين يا باشا؟!
- عبدالمطلب اللي بيغني!!

كان أحدهما صامتًا.. بينما تكفَّل الآخر بالرَّد في كل مرة.. ولكنهما ردَّا هذه المرة كالكورال بصوتٍ جهوريٍّ شقَّ عنان السيارة!!

-أعوذ بالله يا باشا.. ده صوته عِفِش قوي.. ولما بنسمعه بنقفل الراديون!

وهنا كانت الفرملة التي كبكبت الراكبين!!

- انزل إنت وهو!!
- هو حصل حاجة يا بيه؟

- بقولكم انزلوا امشوا!
- طيب لما نوصلوا يا باشا!
- بقولكم انزلوا امشوا!!

نزل الرجلان يضربان كفا بكف.. لم يكونا يعرفان أنه محمد عبدالمطلب نفسه!!

❊ ❊ ❊

أنا المهدي المنتظر

المشهد: نهاري.

المكان: أحد المولات التجارية – مدينة السادس من أكتوبر.

التليفون يهتف بإلحاح بينما أنتظر دوري أمام الكاشير.. ترررن.. ترررن.. ترررن.. ترررن.. تررررررن.

العبد لله: آلو.. السلام عليكم.

العبد لله الثاني: وعليكم السلام أخي الكريم.. اسمح لي أن أزف إليك بشرى ..

العبد لله: تفضل أخي!

ظننتُ لأول وهلة أن كسبت شاشة LCD عملاقة من المول الكبير؛ لكن لا أظن؛ فكيف عرفوا رقمي؟! أتراها جائزة عمرة من برنامج جمال الشاعر أو طارق علام؟! طبعًا لا؛ لقد توقفت مثل هذه البرامج؛ فلم تعد هناك برامج تدفع للمواطن، المواطن الآن يدفع فحسب! فماذا إذًا؟! اللهم بشرى طيبة!

لم يطل انتظاري كثيرًا؛ إذْ استأنف الرجل كلامه قائلًا في تؤدة وثقة بالغة وخشوع لا تخطئه الأذن: إنَّ الإمام المهدي الذي ينتظره الناس ليملأ الأرض عدلًا قد ظهر الآن..

العبد لله: نعم يا أفندم؟!!

العبد لله الثاني: أقول لك إنَّ الإمام المهدي قد ظهر ليملأ الأرض عدلًا بعد أن مُلئت جورًا (يكرر ما قاله).

العبد لله وهو يضع المشتريات أمام البائع: سبحان من عجَّل فَرَجَ الإمام القائم المنتظَر!! وأين هو الآن؟! هل خرج من رَضْوَى أم لا يزال هناك؟!

الكاشير: أيوه يا أفندم.. الحساب ..

العبد لله: أهلا وسهلا أخي الكريم..

الكاشير: أهلا بحضرتك يا أفندم!

العبد لله: كام الحساب؟!

الإمام المهدي: حساب إيه؟!

الكاشير: 264 جنيه.

العبد لله: إن شاء الله نتواصل في وقت لاحق.. وطبعًا قبل أن تقوم الساعة..

الكاشير باندهاااااااش: نعم؟!!

العبد لله: لا أبدًا .. كنت برد على المهدي المنتظر!

نظر الكاشير إليَّ نظرة مريبة وطبعا قال في سرِّه: ولسَّة.. الغَلاء يعمل كده وأكتر من كده..

حدث بالفعل!!

بعيدًا عن السلاطين

السودان شعبٌ طيبٌ ودودٌ بطبعه، وقد لمستُ ذلك في زيارة لهم عام 2012 عندما رافقت أستاذنا الدكتور عبدالحليم عويس -رحمه الله- عند تكريمه من عمر البشير..

بينما كنا نتجهز لمغادرة الفندق والتوجه تلقاء القصر الرئاسي حدثت مشكلة..

أحد الضيوف معنا في الوفد المرافق لمولانا لم يكن اسمه مدرجًا ضمن لائحة الزائرين، يعني لا يوجد مقعد في الجلسة إلا لثمانية أشخاص فحسب..

بادرتُ فاعتذرت لأفسح مكانًا للضيف حتى لا أسبِّب له حرجًا ولا للصديق الرائع أخي الدكتور جمال نور الدين الذي كان يقوم بتنسيق الزيارة والتكريم!

ذهب الجمع وجلستُ في الفندق أضحكُ وأنا أتذكر يوم كنتُ في زيارة لليبيا عام 2006 ، وقالت اللجنة المنظمة للفعاليات إن الضيوف سيحظون بمقابلة الأخ القائد معمر القذافي، ولم يكن لي بُدٌّ من التظاهر بالتمارض حتى لا أتقابل معه.. ثم إن الضيوف لم يقابلوه بعد إلغاء الموعد.. فحمدتُ الله على نيتي ورضيت من آل القذافي بلقاء ابنته عائشة التي بدت راقية بشكل عجيب، ورؤية إحدى زوجاته!

لكني تعرضت في اليوم الخير لموقف كان من الممكن أن يقذف بي في غياهب السجن بغير جريرة، ففي نهاية الفعالية التي كنا فيها أخذ رئيس الجلسة يلقي البيان الختامي جالسا، ثم اقترح في نهاية الكلمة إرسال برقية شكر وتأييد للأخ القائد، وما إن شرع في تلاوتها حتى قام الجالسون في خشوع، لكني ظللتُ جالسًا بحجة كتابة نص البرقية، وكنت في الصفوف الخلفية فلم يلحظني أحد، وكان فضل الله عليَّ عظيمًا!

ويـوم تقدمت منذ أكثر من خمسة عشر عامًا لجائزة المنظمة الأفروآسيوية أخذت الأبحاث مسارها، ثم رأوا تغيير اسم المسابقة من «جائزة السلام الدولي» إلى «جائزة مبارك للسلام»، وأعلنوا عن إقامة حفل لتوزيع الجوائز ربما يحضره مبارك بنفسه فلم أذهب، وهناك كانت المفاجأة..

لقد منحوا كل المشاركين شهادات تقدير باسم السيد الرئيس، ولم يعطوهم مليمًا واحدًا، ويبدو أنها كانت حيلةً من مجدي مرجان رئيس المنظمة لعدم إعطاء أية مستحقات للفائزين!

قبلها بعدة سنوات كنَّا في معسكر أبي بكر الصديق للشباب المتميز، وحلَّ علينا عدد من الضيوف؛ منهم وزير الأوقاف آنذاك محمود حمدي زقزوق، وأسامة الباز المستشار السياسي لرئيس الجمهورية، ومعهم شابٌ طويل خجول كان يتفصَّد جبينه عرقًا.. عرفنا فيما بعد أنه ولد حسني مبارك واسمه جمال!

المهم.. كانت مصر مقبلة على استفتاء دوريٍّ صوريٍّ على رئاسة مبارك، وطلب المنظِّمون أن تختار كل جامعة من الجامعات ممثلًا لها ليبايع سيادة الرئيس نيابة عن الجامعة كلها!

نظر إليَّ الأستاذ محسن ضاحكًا وقال: قم بايع يا عم وليد؛ فاعتذرت ومن ثم اختاروا زميلا لنا كان طالبًا في كلية الطب!

مرت الأيام، وقُتل القذافي، وخُلع مبارك، وينتظر البشير مصير لا يعلمه إلا الله!!

إنني أؤمن دائما بالمقولة الخالدة «السلطان من لا يعرفه السلطان»، وهي المقولة التي جعلتني أعاني كثيرًا في المؤسسات التي عملتُ فيها، حتى إنَّ أحد رؤسائي في مؤسسةٍ ما اشتكاني إلى والدي بحجة أنني لا أذهب إلى مكتبه كل صباح لأشرب الشاي بالحليب كما يفعل بقية الزملاء، وهو الأمر الذي جعل والدي يضحك حتى بانت نواجذه رحمه الله!

ورحم الله حجة الإسلام الغزَّالي الذي قال في رسالته الخالدة (أيها الولد): «لا تخالط الأمراء والسلاطين، ولا ترهم؛ لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة، ولو ابتليت من غير اختيار بها؛ دع عنك مدحهم وثناءهم؛ لأن الله تعالى يغضب إذا مُدح الفاسق والظالم. ولا تقبل شيئاً من عطايا الأمراء وهداياهم، وإن علمت أنها من الحلال؛ لأن الطمع منهم يفسد الدين؛ لأنه يتولد من المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة بظلمهم، وهذا كله فساد في الدين، وأقل مَضَرَّته أنك إذا قبلت عطاياهم وانتفعت من دنانيرهم أحببتهم، ومن أحب أحداً يحب طول عمره وبقائه بالضرورة، وفي محبة بقاء الظالم إرادة الظلم على عباد الله وإرادة خراب العالم، فأي شيء أضر من هذا بالدين والعافية».

* * *

جعلوني متحرشًا

منذ أيام كنت محشورًا في البنك؛ فإذا بامرأة خلفي يفصلني عنها مقدار شخصين أو ثلاثة توبِّخُ رجلًا، فظننتُ أنه اصطدم بها وهو يمر في وسط الزحام؛ فقلت لها: خلاص يا حاجة حصل خير، قالت: وهل رأيت ماذا فعل؟ لقد تحرش بي من الخلف وكنت أظنه امرأة وما اكتشفتُ إلا متأخرا.. قلتُ لها وقد علتني حمرة الخجل: آسف؛ ظننتُه اصطدم بك فقط أثناء مروره!

وكانت المفاجأة!

قالت: سامحني يا أخي، كنتُ أظنك أنت، لأنه خرج من ورائي في الوقت الذي مررتَ أنت فيه، ثم لما عاد للوقوف مرة أخرى تيقنت أنه هو مَنْ فعلها.. قلتُ لها: والله بريء يا أختي، حتى اسألي الكاميرات، والكاميرا ما بتكدبش!

قالت: أيوه عارفه والله، أنا بقولك سامحني!

قلت لها: طبعا مسامحك، وعلى رأي الأستاذ قرداحي «المسامح كريم»

* * *

انصرف الرجلُ -أو صُرف بمعنى أدق- ووقفتُ أُفكر وأُفكر..

ماذا لو أمسكت المرأة بتلابيبي دون أن تتبين المتحرش الحقيقي،

وقالت: الحقوني يا ناس، الحقوني يا هووووووو .. الراجل ده بيتحرش بي؟!

ودارت بي الأرض دورتها..

أظنني كنت سأحظي بتنكيل لم أره في حياتي، رجال ذوو نخوة مصطنعة يتطوعون لضربي وأخذي بالنواصي والأقدام!

وامرأة مسنة تقول: يا أخي خلي عندك شوية حيا، وسايب دقنك كمان وعامل فيها متدين؟!

ورجل آخر يقول: شباب قللات أدب ولا عندهمش نخوة ولا مجدعة!

وينبعث أشقاهم فيقول: ابعتوا لمراته تستلمه!

وأتخيل حينها أم العيال وقد جاءت (على ملى وشها) فتبادرها المرأة ببكاء مرير وتشرح لها كيف اغتلتُ براءتها، وعبثًا أحاول إفهام زوجتي ما حدث، لكنها تقول لي: ألم أسمح لك بالزواج من أخرى راضية مرضية؟! لِم تفعل هذا؟! وأسمع همهمات وحمحمات ومسمسات والكل يقول: خيبه الله!

يا إلهي!!

تبا لهؤلاء الحمقى الذين تطوعوا بتوثيق الحدث التاريخي بكاميرات هواتفهم الغبية، فأزداد رعبًا، يا فرحة «اليوم السابع» و«الدستور» و«البوابة»، وموسى وعمرو وامرأته حمالة الحطب، والعيال بتوع الفيس اللي أنا مبلِّكهم!

وهنا ألمح رجلًا ضخم الجثة يشق الجموع الغفيرة متجهًا نحوي والشتائم تنحدر من فمه كحمم البركان وسرعان ما يتركني المتطوعون محدودو الصحة لهذه العملاق فيمسكني من قفاي فتعروني هِزَّةٌ يتنبَّه لها الواقف خلفي..

وأتنبَّه أنا الآخر فإذا به يقول لي: الدور عليك يا باشا، أظن ده رقم حضرتك اللي بينادوا عليه!

أهزُّ رأسي ممتنًا ومبتلعا ريقي الجاف أصلا، وأتحسس قفاي وأُصلح من هندامي الذي ظننته مبعثرًا، ثم أتوجه إلى الشُّباك متلفتا يمنة ويسرة!

❊ ❊ ❊

شبح الموت[1]

شبح الموت يحومُ في شوارع القاهرة..

للمرة الثانية أُشاهدُ الموت بعيني..

الليلة وفي نحو الساعة الثامنة نجونا بفضل الله أنا والزميل عبدالله راشد من موت مُحقَّق..

ففي طريق عودتنا من مدينة السادس من أكتوبر وأثناء مرورنا أمام برج مصر للسياحة بالعباسية.

رأينا بأعيننا البلطجية يحملون السلاح ويضربون ضربًا عشوائيًّا على المارَّة..

مشهد أشبه ما يكون بيوم القيامة؛ غير أنِّي رأيت الرجل يحمل أولاده ويجرُّ زوجته هَرَبًا من النيران والمولوتوف..

العجيب أن سيارتنا اصطدمت بأخرى ولم يلتفت السائقان!

قبلها بنحو أربعة أيام أثناء مروري والصديق أشرف توفيق بنفق الأزهر رأينا الزيت وقد سُكب أمام سيارة الشرطة مما جعلها تدور حول نفسها داخل النفق.. لم يكن يفصل بيننا وبين سيارة الشرطة سوى بضعة أمتار، ولكن الله سلَّم..

يبدو أن الموت صار وشيكًا..

أشهد أنَّ لا إله إلا الله.. وأنَّ محمدًا رسول الله!

---

(1) كان ذلك في 7 أبريل 2013م.

الملك المظلوم

كنت ذات مرة عند مولانا الشيخ أبو العينين شعيشع -رحمه الله- في بيته بضاحية مصر الجديدة فسألته عن الملك فاروق وهل كان فاسدًا كما يُقال عنه أم لا؟!

ابتسم الرجل في حنوٍّ بالغ كعادته وقال: والله أنا قرأت القرآن في حضرة كل الرؤساء حتى الآن -يعني مبارك- فما رأيتُ أكثر إنصاتًا ولا خشوعًا ولا احترامًا للقرآن من فاروق..

وأكمل قائلًا: وحدث أنني كنت أقرأ ذات مرة وجاء أحد الذين يعملون في القصر بالقهوة لفاروق -وكان مستجدًا- فلمَّا رأى الملك في هيبته اهتزَّت يده فوقعت على بنطلون فاروق؛ فجثا الرجل على ركبتيه منتظرًا العفو من الملك؛ فأشار إليه بالانصراف.. يقول الشيخ: فو الله ما قام فاروق من مجلسه حتى صدَّق القارئ سريعًا..

وحكى لي الأستاذ الدكتور جعفر عبدالسلام -الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية ونائب رئيس جامعة الأزهر الأسبق- أنه أثناء تجوُّله في نابولي بإيطاليا بصحبة أحد المصريين أشار إلى أحد البَارَات قائلا: هذا البار الذي كان يتردد عليه الملك فاروق؛ فأصر الدكتور جعفر على دخول البار بنفسه عندما علم أن النادل لا يزال حيًّا؛ فسأل الرجل عن حياة فاروق فلخَّص له المشهد قائلا: «لم يكن فاروق يعاقر الخمر أو يواعد النساء؛ وإنما كل مشكلته أنه كان يلعب القمار حتى آخر مليم يملكه».

هذا الكلام أكدته زوجته الأخيرة الأميرة الإيطالية إيرما كاباتشى مينوتولو في حوارها مع صحيفة المصري اليوم 6 يوليو 2016، تقول: «لقد كان فاروق ملتزمًا، وفى إحدى الحفلات شربت أنا كأسًا من الشامبانيا، وقد عنفنى، وقال لى: إنني كمسلم لا أشرب الكحوليات، وأنا إن قبّلتك فستلامس الخمور شفتى؛ فلم أكرر هذا الأمر احترامًا لرغبته».

وتقول أيضًا:

- «كانت دموعه لم تفارقه كلما تذكر مصر، وأذكر أنه في أول زيارة لنا لنابولي بعد أيام من زواجنا وجدته يبكى في أحد المقاهي الشهيرة بشارع (كاراتشولو)، لأن المنطقة ذكرته بشوارع الإسكندرية، وهذه هي المرة الأولى في حياتي التي أشاهد فيها ملكًا يبكي، لكن فاروق كان حالة استثنائية ويملك قلبًا طيبًا للغاية ومحبًا للجميع. وكنا دائمًا نحرص على زيارة المدن الإيطالية التي تشبهه بمصر، منها على سبيل المثال مدينة سورينتو. لكن برغم ما حدث له لم يسمح فاروق لأي إنسان بالإساءة لمصر، ولم يعبر للجميع سوى عن حبه لهذا البلد العظيم».

- اعتاد فاروق بأن يناديني بكلمة حبيبتي باللغة العربية، وكنت أنا أناديه بكلمة حبيبي، لكن في المواقف الرسمية كان يناديني باسمي الملكي الذي اختاره لي يوم زفافنا وهو اسم Faegi (فايجى) الذي يعتبر اسمًا مركبًا، فالـ(فا) يرمز لأول حرفين من اسم فاروق و(ايج) أول حرفين من مصر، والحرف الأخير هو الذي يبدأ به اسمى، وكان يقول لي إن اسم مصر يجمعنا في اسمك الملكي».

- «نعم، كانت دموعه لا تفارقه كلما تذكر مصر، وأذكر أنه في أول

زيارة لنا لنابولي بعد أيام من زواجنا وجدته يبكي في أحد المقاهي الشهيرة بشارع (كاراتشولو)؛ لأن المنطقة ذكَّرته بشوارع الإسكندرية، وهذه هي المرة الأولى في حياتي التي أشاهد فيها ملكًا يبكي، لكن فاروق كان حالة استثنائية ويملك قلبًا طيبًا للغاية ومحبًا للجميع. وكنا دائمًا نحرص على زيارة المدن الإيطالية التي تشبه مصر، منها على سبيل المثال مدينة سورينتو. لكن رغم ما حدث له لم يسمح لأي إنسان بالإساءة لمصر، ولم يعبِّر للجميع سوى عن حبه لهذا البلد العظيم».

- «لقد رأيت فاروق للمرة الأخيرة قبل وفاته بأيام، في روما، وأتذكر حديثه الأخير معي بأنني سألته هل تتمنى العودة لمصر كملك؟.. فأجابني إنني لم أفكر مطلقًا في أمر الملكية والحكم، ولكنني أتمنى أن أعود إلى مصر وأموت على أرضها، وهذا الأمر بالنسبة لي أهم من عروش الدنيا كلها».

- «فاروق لم يفكر مطلقًا في أنه قد يموت شابًّا، ولم يعمل حسابًا لغدر الزمان، لقد مات دون أن يترك ميراثًا لي أو لأولاده، فلا صحة لما تردد في الإعلام بأنه كان يملك ثروة كبرى».

وبعد.. فليس هذا الكلام ترويجًا لفاروق الذي صوَّره إعلام عبد الناصر بالملك الفاسد زير النساء؛ وإنما للتدليل على أن تزوير التاريخ أمرٌ سهلٌ وميسورٌ لمن يملك أَزِمَّة الأمور!!

وما أكثر هؤلاء الذين يبيعون أقلامهم لمن يدفع؟!

* * *

مؤتمر وذكريات

لمناسبة انعقاد مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف أذكر أنني حللت ضيفًا عليه عدة سنوات متوالية إلى قبل ثورة 25 يناير 2011، وكان هذا المؤتمر يؤكد دومًا على ريادة مصر في العالم الإسلامي ويحرص على ترسيخ وسطية الأزهر ومنهجه الأصيل.

لا أنسى من قابلتهم على هامش هذا المؤتمر من شخصيات مهمة أثَّرت فيَّ أثرًا بالغًا، ولا أنسى أيضًا ما رأيته بعيني، وقد رصدتُ عن قُربٍ إعجاب الوفود الإسلامية بحديث البابا شنودة عندما تحدَّث في مؤتمر التجديد في الفكر الإسلامي، وطوَّف حول معنى التجديد وصال وجال، على حين فشل أحد وزراء أوقاف الدول الإسلامية الكبرى في قراءة كلمته من الورقة بلغة عربية صحيحة.

كما لا أنسى يوم قرأ الشيخ حلمي الجمل مفتتِحًا المؤتمر حتى وصل قول الله تعالى: {وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا} وسط تذمُّر البابا والدكتور زقزوق وشيخ الأزهر الذين رأوا في قراءة هذه الآيات حرجًا للبابا وغيره من الحضور من غير المسلمين!

عندها بدا القلق على وجوه المنصة لا سيما بعد تململ البابا شنودة وزيادة حركته!!

وزاد القلق أن الشيخ الجمل أخذ يقرأ «وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ»

بضم الرَّاء وتسكين العين مرَّةً، ومرةً بضم الرَّاء والعين معًا، ومرةً بتحقيق الهمزة في (تَـأْسِرُونَ) ومرة بتبديل الهمزة.. وهكذا (بيتدَّلع بمفهوم السمِّيعة)!

انتهى الشيخ من القراءة، ولم يقل كعادة كثير من القراء «الفاااتحة». عندها قلت في نفسي: الله يعوض عليك يا شيخ حلمي!! الفاتحة لك!!

انتهت الجلسة الافتتاحية، وجلست أستمع إلى تعليقات الكِبار؛ فذكروا أنَّ الدكتور عبدالصبور مرزوق -الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية- كان يجلس مع البابا شنودة ذات مرة على المنصة؛ فبدأ الأخير حديثه قائلا: باسم الرب؛ فمال عليه الدكتور مرزوق وقال له مبتسمًا: الرب ده عندكم بس!!

قال له ضاحكًا: طيب أقول: باسم الله؟!

قال له: ولا دي كمان!

قال له: طيب نقول إيه؟!

قال: خليها باسم الإله الواحد الذي نعبده جميعًا!!

فتبسم البابا وقال: باسم الإله الواحد الذي نعبده جميعًا؛ علشان خاطر الدكتور عبد الصبور ما يزعلش!!

* * *

ولا أنسى مقدمات الثناء والإطـــراء التي كـان يُزجيها الأستاذ جمال الشاعر لمبارك ورجالاته كأنما يتحدث عن جيل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم!

رأيتُ على هامش المؤتمر كيف كان علي السمان -رئيس لجنة الحوار

الإسلامي المسيحي- يقبل النساء علانية وسط دهشة الحضور ودون أدني حياء أو مراعاة لمشاعر الحاضرين، نعم كانت محظياته من القواعد من النساء؛ لكن كان ذلك الفعل كافيًا لاشمئزاز أصحاب الفطرة السليمة!

ولا أنسى أيضًا أن بحث الدكتور صوفي أبو طالب حول «الكفاح المشروع للشعوب» سنة 2002 خضع لمقص الرقيب؛ فحذف منه فقرات، لم يتعجَّب الرجل لهذا الأمر؛ فلما سألته: كيف يجرؤ أحدهم على العبث بشيء كتبته يا ريس؟! قال: بلادنا بلاد مناصب، واحترام المرء فيها رهينٌ ببقائه على كرسيه فحسب!

ولا أنسى يوم رأيت الدكتور أسامة الباز للمرة الأخيرة يعاني المرض والتجاهل بعد أن عاش ملء السمع والبصر!

لا أنسى أيضًا هؤلاء الأعلام الذين أدمنوا النوم أثناء الجلسات، ولا أولئك الذين كانوا يحرصون على التقاط صور لهم مع كل طرفة عين وانتباهتها!

ولا أنسى خناقتي مع محمود الهباش وزير أوقاف فلسطين الذي أخذ يسبُّ ويشتم في المقاومة الفلسطينية ويُمجِّد في السَّلام وأوسلو وعريقات وحنان عشراوي!

وتلك الأيام نداولها بين الناس!!

* * *

فضائيات البطاطين

في عام 2006 أو 2007 -شكَّ الراوي- كتبت مقالا بالأهرام المسائي تحت عنوان «الفضائيات الإسلامية رؤية من الداخل»، والحقيقة أن عملي في الفضائيات لما يقرب من عقد من الزمان يصلح كتابًا وثائقيًا كبيرًا.. لكني منذ اعتزلتُ الفضائيات راضيًا مرضًّا لم أُرد أن أتحدث عن هذه الذكريات بحلوها ومُرِّها؛ لكن نبًا بلغني حملني على الكتابة!

في يوم جاءني أحد الأشخاص مهرولًا وعرفني بنفسه أنه أخ شقيق لأحد أشهر المشايخ المعروفين في الفضائيات ممن صدَّعوا رؤوسنا بالحديث عن الزُّهد والتقشُّف وذم الدنيا والهوى وغيرها من كلاسيكيات هذه النوعية من الفضائيات..

لم يطل التعارف كثيرًا..

طلب منِّي أن أتولَّى الإشراف على مشروع اسمه «تأملاتٌ في آياتٍ» في قناة يتولى فيها إدارة الإنتاج.

لم أفهم المراد من الموضوع.. سألته فلم أجد لديه إجابة شافية؛ قال: باختصار التكليف ده جانا من إدارة القناة، ونحن لا نفهم المطلوب أصلًا..

في اليوم التالي أرسل إليَّ الأوراق فقرأتُها على عجلٍ ففهمت المراد منها.. استبشر الرجل خيرًا وكذلك رئيس القناة الذي تهلل وجهه واشتهش.

تم الاتفاق على أن أشكل فريق عمل بمعرفتي لإنجاز المشروع.. ورغم انشغالي بعملين في ذلك الوقت تشجَّعتُ للمشروع لاعتباره جديدًا.. وتم تشكيل الفريق الذي ضمَّ مجموعةً متميزةً منهم.

اتفقنا على كل شيء.. بدأنا العمل ودارَ دولابه.. أنجزنا جزءًا كبيرًا من «الفَرْشَة» التي سيقوم عليها المشروع فيما بعد..

فرح الرجل وكذلك رئيس القناة بما أنجزناه.. وبدلًا من شُكرِ الناس بدأتْ المساوماتُ القذرة..

طلب مني تخفيضَ عدد الباحثين على أن يرفع مستحقاتي وبذلك يوفر للقناة ويزيد من مستحقاتي.. رفضتُ العرض الدنيء بشدة!

في نهاية الشهر فوجئت بأننا نقبض مبالغ أقل من المتفق عليها.. سألتُ الرجل (أخو الشيخ إياه) وكان قادمًا من موسم الحج؛ فأنكر الاتفاق مطلقًا.

ظننته قد نسي.. عبثًا حاولت تذكيره؛ لكنه أبى واستكبر وبالغ في إنكاره..

لم أجد بُدًا من تهزيئه.. ليس لنفسي.. فأنا بفضل الله كنت أتقاضى راتبين من مكانين مختلفين.. لكن ما ذنب الزملاء الذين قطعوا المسافات جيئة وذهابًا في شوارع القاهرة المزدحمة في نهار رمضان وسهروا الليالي الطويلة في البرد القاتل؟!

قلتُ لهم: لا يُشرِّفني العمل معكم.. ولو عملتُ مع (هـ . س) لكان أشرف لي من العمل مع المُدَّعين أمثالكم!

نُكسوا على رؤوسهم.. ولم يجدوا ما يردُّون به!

تركتُ العملَ ومعي الباحثون.. ونصحتُ أحدهم وكان مُقدِمًا على

الزَّواج أن يستمرَّ هو في الموضوع..

يحكي لي هذا الصديق فيما بعد أن القناة استعدَّت لقدوم مجلس الإدارة لعقد اجتماعٍ مهمٍ ولمتابعة ما أُنجز من المشروع.. وهي عدة «فيلرات» قصيرة..

يقول الرجل: جلس (المُونتير) يستعد لتشغيل الفيديوهات.. وما إنْ دخل أول أفراد اللجنة حتى ذهب العمل أدراج الرياح.. لقد انفجرت ذاكرة الجهاز كأن شيئًا لم يكن، وصدق الله «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا().. وتوقف المشروع عند هذا الحد!

مرت الأيام.. وبلغني منذ قليل أنَّ الرَّجل أخو الشيخ الذي استحلَّ الحرام قد تُوفي منذ أكثر من عامٍ ونصفٍ!

فاللهم إني سامحته وتصدقت عليه بما لي عنده!

* * *

أزيدكم من القاع صاعًا..

عقب اندلاع الثورة الليبية قام أحد المقربين من نظام القذافي بعمل قناة تُبث من القاهرة اسمها «ليبيا أولا» قال إنها لمساندة الثوار!

المهم طلبوا مني عمل برنامج دينيٍّ، وتم الاتفاق مع القناة على أن يُقدِّم الشيخ حسن مرعب برنامجًا أقوم برئاسة تحريره تحت عنوان «لعلهم يفقهون».

مضت الحلقات وفوجئت بأن القناة تحيد تمامًا عن اتجاهها القديم..

فطلبوا حلقةً عن هدم السلفيين للأضرحة في ليبيا.. فسألتهم إنْ كان

ذلك قد ثبت بالدليل أم لا؟ وهل هم سلفيون بالفعل أم لا؟!

المهم أنه كان من عادتي أن أستمع إلى آراء الجميع دون النظر إلى اتجاهه لأنني لا أحب أن تكون برامجي أُحاديةً تسير في اتجاهٍ واحدٍ.. أعني: الرأي والرأي الآخر..

لم تُؤت الحلقة ثمرتها المرجوَّة من وجهة نظر القناة..

ودخلنا في دائرة مفرغة..

حلقات موجَّهةً وموضوعات مصطنعةً يُراد الترويج لها لتشويه شباب الثورة الليبية.. في النهاية توقف البرنامج، وبقيت لي مستحقات قدرها 18،000 جنيه منذ العام 2012.

طبعا في بلادنا لا قانون ينصف، ولا ميثاق شرف يحكم غابة الفضائيات!

«السلفية النفطية» من شأنها أن تغض الطرف عن كل ما مِن شأنه إزعاج الأنظمة النفطية؛ هم الذين ادعوا اتِّباع السلف ولم يسيروا على هداهم وانتقوا من فقههم ما يقتاتون به على موائد الأمراء. يحتفون بالإمام ابن القيم، في الوقت الذي يُهملون كتابه «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية». يُجِلُّون الإمام ابن تيمية، لكنهم يتجاهلون كتابه «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، وإن ذكروه ففي إطار دعوتهم إلى استعباد الراعي للرعية!

،يُفرِّغون الدين من مضمونه، ويتحدثون عن الزهد والتقشف في حين يمتطون الهامر وسيارات الدفع الرباعي بغير جهد منهم إلا الولاء للأنظمة الفاسدة وشرعنة الاستبداد!

لقد تغير مفهوم العلم مع ظهور «السلفية النفطية» لا «السلفية

الحقيقية»، فصوروا للناس أن حفظ المتون على عواهنها واستظهار الحواشي بكل سوءاتها هي العلم الحقيقي!!

والحقيقة أن العلم هو الاجتهاد وليس الحفظ فقط، وإلا فالكتب أوثق من أي حافظ!

وماذا أضاف من يُقال له «طالبُ علم» يتقاضى عشرة آلاف جنيه في الشهر تأتيه من زكوات المقتدرين ممن يظنون أنهم يُحسنون صنعا؟!

ولا أنسى هذا الداعية البدين الذي جئنا به في قناة أزهري وبعد عدة حلقات أبى الخروج على الهواء قبل الموعد بقليل مطالبًا بزيادة المقابل المادي، وقال ما نصه: «عاملوني كستار .. نجم يعني»؟!

ولن أنسى ذاك الشيخ الكهين -صاحب القناة والجريدة والدموع الحارة- الذي ذهب إلى ليبيا وخطب في حضرة القذافي قائلًا: لقد سمعتُ في ليبيا قرآنًا عجبًا؛ فاستحق عطيةً من ذهب الأخ القائد!

* * *

عبر حياتي القصيرة رأيت كثيرًا من النماذج التي كلما ذكرتُها تملكني الغمُّ والحَزن.. ولعل أكثر هذه النماذج تأثيرًا في نفسي، وأحقهم بالشفقة أولئك الذين يعملون في أعمال لا تتسق مع ذواتهم!

فكم من شخص قابلته وهو ساخط على نفسه وعمله معًا، يعتصرني الألم ويَغصُّ حلقي بالمرارة كلما سمعتُ صديقي المذيع الذي أصبح ملء السمع والبصر في الفضائيات الرخيصة، يروِّج للبطاطين الوثيرة والمراتب المريحة والمراوح اللوذعية والبراد الذكي والكمبيوتر الشقي الـ 80 جيجا.. ولوازم السعادة الزوجية أيضًا!!

أتذكر بحسرة يوم كنا نسجِّل تعليقًا لي كتبته عن طلب نبي الله موسى -عليه السلام- رؤية ربه -سبحانه وتعالى- وتجلِّيه -عزَّ وجلَّ- للجبل؛ ففاضت عينه من الدمع تأثرًا وخشية مما يقرأ!

أعرف أنه ما فعل ذلك إلا مُضطرًا، ولو خُيِّر ما اختار العمل في هذه الإعلانات المتدنية، لكن للضرورة أحكام!

فاللهم إنا نعوذ بك من السلب بعد العطاء!

* * *

هل هناك حيادٌ إعلاميٌّ؟!

كنا قبل عصر الفضائيات والإنترنت نتابع أخبار الفعاليات الملتهبة والحراك الوطني من خلال وسيلة واحدة هي الإذاعة!

أذكر تلك اللحظات العصيبة التي كنت أدير فيها مؤشر الراديو بعناية فائقة حتى ألتقط موجات إذاعة B.B.C لألتقط صوت ماجد سرحان أو علي أسعد أو حسام شبلاق، أو محمود المسلمي أو زين العابدين توفيق.. ثم تكون العبارة الشهيرة الرنانة: هنا لندن!

وكم كنت أجتهد لالتقاط رسائل مصطفى بكري على موجات راديو «مونت كارلو»

ومن الأساطير التي كنت أعتنقها قبل عملي بالإعلام وجود إعلام محايد؛ فمثلا كنت أمصمص شفتيَّ عندما أرى البي بي سي تذيع خبرًا عن مظاهرات لموظفيها للمطالبة بحقوقهم أو الاعتراض على سياساتها!

كانت الإذاعتان المتنفس الوحيد للمعارضة المصرية التي لم يكن مسموحا بها في إعلام موافي (صفوت الشريف).

ومرت الأيام والسنون، وكبرتُ واشتغلت في الإعلام لأكتشف الحقيقة المُرَّة: لا يوجد إعلام محايد، لكن يوَّجد إعلام منحاز تماما، وإعلام يُظهر بعض الحياد، وإعلام يُظهر الحياد كله.. والثلاثة غير حياديين!

الإعلام في النهاية يخضع لرؤية صاحب رأس المال والأجهزة الكبرى والكيانات الضخمة، كما يخضع لأيدلوجية المعد ولأيدلوجية المذيع وقبلهما مدير البرامج وهكذا!

حاولت جاهدا في كل القنوات التي عملت فيها أن أكون محايدا، أجمع الرأي والرأي الآخر ولا أنتصر لرأيي؛ لكن كانت لرأس المال الكلمة العظمى!

أذكر عندما كنت أعمل مديرا للبرامج في عملي الأخير واجهت اتهامين كلاهما أعجب من الآخر:

- التعاطف مع الإخوان والثورة!
- العمل ضد الإخوان والثورة!

وفي هذا الإطار حدث مرة أن استضفت الرمز اليساري المعروف أبو العز الحريري في برنامج «المنتدى» وهو برنامج توك شو على «قناة أزهري»، وباعتباري كنت رئيسًا لتحرير البرنامج؛ فقد كان لابد من الترحب بالضيف العزيز.. وقبل الحلقة دار هذا الحوار الذي توقعته كما هو:

- دي أول مرة تروح فيها قناة إسلامية يا أستاذ أبو العز؟!
- يعني إيه إسلامية؟ وبقية القنوات كفرة مثلًا؟!
- هههه مش كفرة ولا فسقة يا باشا، ولكن جرى العُرف على تسميتها لتخصصها في القضايا الدينية.

- ما هو مش كل حاجة ندخل فيها الدين كده على طول!
- طيب ندخل الدين فين؟!
- الدين ده حاجة كبيرة!
- يعني نحنط الدين ونحطه على جنب يا أستاذ أبو العز؟!!
- هي الحلقة هتبدأ إمتى؟
- حالًا ..

شرفتنا يا أستاذ أبو العز!!

❊ ❊ ❊

فتوة شيخ

ما إن يتنفس الصبح ويرفع المؤذن النداء حتى يشق وقع عصاه صمت شوارع المدينة التي نامت لتوِّها...

أعرفه منذ زمن، فقد كان صديق جدي لوالدتي الشيخ أبو عبيدة -رحمهما الله- وكثيرًا ما كانا يجلسان في حجرته بالمسجد القديم، وما أدراك ما المسجد القديم وشجرة موزه الجليلة!

اليوم لحقتُ به في الطريق إلى المسجد فسَرَتْ في جسدي قشعريرة .. إنه يعاني كثيرًا في المشي المتقطع إلى الدرجة التي يلحظها الرائي من بعيد، فإذا اقتربتَ منه سمعتَ أنفاسه المتلاحقة في غير هوادة!

سلمتُ عليه وقبلتُ يده وعرضتُ عليه أن يتوكأ عليَّ فاعتذر بلطفٍ ومودةٍ، استأذنته ومضيتُ!

ربما لم يعرفني، كنت حينها صغيرًا قبل أن تشيبني صروف الدهر!

في الطريق جعلتُ أتعجَّبُ من إصرار الشيخ عبد العزيز عرفة على الصلاة في المسجد رغم شيخوخته ومرضه، وربما كانت له رخصة في الصلاة في بيته، لكني تذكرتُ كيف كانت صلاة الفجر حياة لوالدي -رحمه الله- وكيف كان حريصًا عليها حتى في ليالي الشتاء الباردة .. ولا عجب، فمنها يستمد زاد اليوم..

إنها الفتوة الحقيقية أن تتغلب على شيطانك في هذا الوقت الذي يحلو فيه النوم أكثر من أي وقت آخر!

طافت بذاكرتي صورة الرجل الذي كان يقول عنه الناس إنه مجنون؛

صليتُ غير مرةٍ بجانبه، فكان يدعو في سجوده دعاءً عجبًا؛ كان يقول: يارب ما تحرمني من صلاتك أبدًا.. أبدًا.. أبدًا.

تمر الأيام فأراه في أشد حالات مرضه يذهب بجسده الهزيل إلى المسجد ليصلي.. وظل على هذه الحال حتى مات!

تذكرت أيضا -والذكرى مؤرقة- كلمة أستاذنا الراحل أحمد تركي عندما كان يتحدث عن صلاة الفجر قائلا: ومن يصلي الفجر يشم هواءً لم يتلوث بعد بأنفاس العصاة.

فاللهم لا تحرمنا صلاتك حتى نلقاك!

الهُلامي

رأيته يمشي فيدك الأرض دكًا، كان كل جزء من جسده الهُلامي يرتج كقالب من «الجيلي»؛ لكن ضخامة جسده الصغير لم تُخف براءة طفولته، هو طفل في جسد رجل، أو رجلٌ تلبَّس جسد طفل وأبقى على طفولته!

لم تمر لحظات حتى جاءه أطفال صغار كالديوك، كانوا يتناوشونه ويحومون حوله كما تحوم الذئاب حول فريستها، هنا أيقنت أن هؤلاء الأباليس هلكى لا محالة، فضربة واحدة من يده تجعلهم كعصف مأكول، ما أشقاهم إذْ يُغضبون قويًّا كهذا!!

يا إلهي!!

إنه يهتز يهتز كما لو كان زلزالًا، لا ريب أنه سيسحقهم، ربما سيكونون مجرد ذكرى!

هممتُ بترك مكاني والخروج إليهم لإنقاذهم؛ لكن كيف ذلك والخطيب على منبره وأنا بعيدٌ عنهم؟! لابد أن أحد المصلين الداخلين

سيزجرهم كي ينصرفوا!

مرَّت اللحظات ثقيلة، وحدث ما لم يكن في الحسبان!!

كان الطفل العملاق يتراجع أمام الأطفال وقد اكتسى وجهه بالفزع، لست أبالغ إذا قلت إنهم كانوا في حجمهم كالجرذان بجوار أسد هصور؛ لكنه كان فزِعًا منهم رغم ذلك!

مرَّت اللحظات وظهر كل شيء!

الطفل الضخم يعاني من أزمة ثقة، نعم لديه قوة جسمانية؛ لكنه يخاف الأطفال مهما صغروا، وهذا ما يعرفه هؤلاء الأشقياء الذين كانوا سعداء بإخافته.

يا إلهي!!

كم هو مؤلم!!

انصرفت بنظري عن الطفل، أو هكذا خُيِّل لي!

ورُحتُ أُفكِّر!

فما أشبه حال هذا الطفل بحال أمتنا!!

نملك قوة بشرية وثروات متنوعة وقبل هذا وذاك دينًا قيما ورصيدًا حضاريًا، لكن بلا جدوى!

ما هؤلاء الصبية إلا كأعداء أُمتنا الذين تسلطوا عليها منذ زمن؛ فكانت الهزيمة النفسية والخنوع، والتسول رغم مقدراتنا الهائلة!

فهل لهذا الطفل أن يعرف قدر نفسه؟!

نعم، لو صحت العزيمة ومنحه أهله الثقة التي يفتقدها!

عندها سيعيش مهاب الجانب يخشاه الكبار قبل الصغار!

* * *

حظيرة الدجاج

منذ أيام.. وبناءً على رغبة السيدة الوالدة أحضرنا بعض الدجاج الصغير لتربيته في المنزل الملحق، وصار أولادي الصغار يقومون على شئونه من طعام وشراب وخلافه (بصوت نجيب الريحاني)؛ لكن هناك قضية جوهرية محل جدل وخلاف دائمين بين الصغار وجَدَتِهم..

إنها قضية الحُرِيَّة!

نعم الحرية!

الجدة تُصرُّ على إغلاق الحظيرة على الدجاج الصغير حتى لا يفر هاربًا أو تتخطفه القطط، والصغار يُصرُّون على أن يعيش الدجاج طليقًا!

ومنذ قليل جاء ولدي الصغير صاحب السنوات الأربع «عمر» ضجرًا يشكو الجدة التي لم تفتح الحظيرة حتى اللحظة؛ فلما سألته: ولِمَ تريد أن تفتح الحظيرة؟!

قال: علشان الفراخ تخرج وتدخل!

والتقط أخوه الأوسط «ماجد» خيط الحديث فقال: لازم تفتح عليها يا بابا علشان تبقى الفراخ حُرَّة! وهي تيتة تتحمل نقفل عليها وما نفتحش لها؟!

هرول الصغيران لفتح الحظيرة وسط صراخ الجدة، لكن الشباب كانوا أمضى عزمًا وأكثر تصميمًا على حرب التحرير!

انطلق الدجاج من محبسه وأخذ يلهو ويمرح، وجلستُ أُفكِّر كيف

جسَّد هذا الموقف موقف الجيل القديم والجديد من قضية الحرية!

فالجديد لن يرضى بغير الحرية بديلًا!

في صباح اليوم التالي بشرني عمر بأن أخاه الأكبر «خالد» قد حرَّر (واللفظ له) قطتين صغيرتين كان بعض الأطفال قد حبسوها في بناء تحت التجهيز!

فاللهم حرية كحرية هذه القطة المحررة!

* * *

خواطر عمَّالية

قُدِّر لي أن أعمل منذ مطلع الألفية الثالثة في عدة مؤسسات أغلبها برأس مال غير مصري..

والحقيقة أن هذه الفترة تحتاج مني إلى تأريخ وافٍ؛ فقد التقيت في هذه السنوات عدة رموز في مجالات مختلفة -لا سيما الدعوة والسياسة والإعلام- لم أتصور يومًا أن أحظى بمعرفتها فضلا عن الجلوس إليها والتواصل معها..

كما أتيح لي السفر إلى عدة دول من تركيا شمالا إلى السودان جنوبًا.. ومن قطر شرقًا إلى ليبيا غربًا.. وهو الأمر الذي أكسبني كمًا من الخبرات الحياتية لم يكن لي أن أحصلها لو ظللت عاكفًا على كتب العالم أجمع!!

وقد سجَّلتُ بعض هذه الخواطر العمالية على النحو التالي:

(1)

من القواسم المشتركة في أي عمل بمؤسسة برأس مال غير مصري -أو حتى مصري- أن يُسند صاحب رأس المال مهمة استنزاف الموظفين إلى شخص يُشبعه براتب عالٍ -لم يحلم به في بيت أبيه- حتى يستطيع أن يحصل من الموظفين على أكبر قدر من العمل بأقل أجر ممكن، وربما تطوَّع أحدهم بهذه المهمة زلفى إلى صاحب العمل!!

وقد رأيتُ بعيني وسمعت بأذني أمثال هؤلاء، ممن يضيق المقام

بذكرهم، ينزلون بالرواتب إلى حد لم يحلم به المستثمر، فربما جاء أحد المستثمرين وفي ذهنه أن الحد الأدنى للراتب مثلا عشرة قروش فيتفاجأ بمن يقول له: أنا أجيب لك نفس الموظفين بخمسة قروش وبتلاتة كمان!!

(2)

مما عمَّت به البلوى في بلادنا أننا توارثنا من دولة المماليك -الذين جُلبوا عبيدًا إلى مصر فحكموها بعد ذلك- أخلاقًا سادت مؤسساتنا منها «الانتهازية» و«الزنبقة» و«الشللية».. وغيرها مما يعف اللسان عن ذكره!

ولنا مع كل هذه الأخلاق وقفات!!

(3)

عن الشللية في مؤسساتنا فحدث ولا حرج!!

كأن العمل في مصر لا يستقيم إلا بالشللية والعصبة أُولِي القوة..

فما إن يدخل الموظف مكانًا حتى يسعى إلى خلق إطار عنكبوتي محكم من العلاقات يتصل بسبب إلى المسئولين..

ومن ثم يسعى إلى تفكيك ما هو قائم عن طريق «الزنبقة» و«المهمزة» و«الخ*وقة» ... وغيرها من الوسائل التي ولدتها صروف العمل!!

ثم يكون التعاون على الإثم والعدوان!

(4)

كثير ممن يدَّعون التدين والحرص على أكل الحلال لا يرعوون عن تسليم الموظف لصاحب العمل «تسليم أهالي»

فتراه في صف صاحب العمل سرًا وعلانية.. متذرعًا بأن أكل العيش مُـرٌّ..

وربما كان بلا حياء فادعى أنه فعل ما فعل لصالح الموظف!!
مسكينٌ هذا!!
لا يعلم أن سيرة الإنسان هي الباقية، وأن المال يأتي ويذهب!

(5)

كثيرًا ما يحرص المدير على أن يقيم سياجًا منيعًا بين الموظفين وصاحب العمل!! فيتحول مكتب صاحب العمل إلى ثكنة عسكرية مكتوب عليها: «ممنوع الاقتراب ومجرد المصافحة»!! وتكون المشكلة أكبر مع أصحاب الكفاءات وذوي الشخصية الذين يليقون بلقب مدير ويليق بهم، فباطن الأرض لهم عند المدير خير من ظاهرها..

(6)

كثيرون هم الذين يعملون في أماكن لا تروق لهم؛ لأن عملهم يخالف ضمائرهم!!
لكن تظل «السبوبة» هي الحاكمة لإطارنا الخلقي!! والأولاد كما قيل: مجبنة..

(7)

في بلادنا لا تسل عن الصلاحية للعمل والكفاءة.. فصاحب العمل يرى فيمن جاء به إلى سدة الإدارة شخصًا خارقًا حتى وإن افتقر إلى بدهيات العمل!!
ولعل قدرته على إرضاء صاحب العمل هي أهم المؤهلات التي تتقاصر أمامها الشهادات!!
وتبقى الشللية والولاء حاكمة لدولاب العمل في بلادنا!!

(8)

كثير ممن وُسد إليهم العمل في مؤسساتهم يحاربون كل جديد لا لشيء إلا أنهم لا يتقنونه ولا يملكون القدرة على مسايرته.. أولئك تنطبق عليهم المقولة المعروفة لدى علماء الاجتماع: «الإنسان عدو ما يجهل»

(9)

من نكد الدنيا أن ترى رجلًا على مشارف الدار الآخرة غير مدرك أنها الحيوان!

أذكر بأسى بالغ يوم جلسنا منذ سنوات نرتب لاستقبال شخصية دولية كبيرة؛ فكان مما قيل إن هذا الضيف يحب المديح والإطراء؛ فانبعث أشقاهم وكان وكيل وزارة من الوزارات الكبرى قد اعتلى المعاش منذ زمن حتى تخطَّاه الزمن؛ فقال ما نصه: «دعوا وصلات النفاق هذه لي».

فبالله ماذا يريد هؤلاء من الدنيا سوى صحيفة أعمالهم وكفنهم؟!

ولماذا يصرون على مزاحمة مَنْ هم في عمر أولادهم؛ بل أحفادهم حتى آخر أنفاسهم؟!

ولماذا لا يدرك الأستاذ أن تلميذه عقبٌ له؛ فإن أحسن إليه في حياته؛ تذكَّره التلميذ بالإحسان حال مماته؟!

ولماذا لا يشبع هؤلاء من كنز الأموال وجمعها من حِلِّها وحرامها؟!

وتبقى الحقيقة المرة: «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى».

* * *

رحيل الجد[1]

كان يومًا قائظًا كأنما خرجت شمسه من بين الرمال!

خرج جَدِّي في الصباح لزيارة عمِّي «عَلي» في منزله.. على أطراف القرية ووسط حقولها، كان يقف وحده وسط حقول القمح الصفراء، لم يكن يجاوره منزلٌ آخر، كان ذلك قبل أن تتآكل الرِّقعة الزراعية ويزحف الإنسان على الطبيعة بخيله ورَجْلِه، وقبل أن تحلَّ الكتل الإسمنتية بكل ما فيها من قبحٍ بديلًا عن الطِّين اللَّبِن الذي كان أكثر وُدًّا ورهافةً!!

مَرَّ الوقتُ حارًا بطيئًا..

الساعة تشير إلى نحو الواحدة ظهرًا.. يطرق الباب من يخبرنا أن الجد مريض وقد أرسل في طلب أبي الذي هرول من فوره!!

تقاطر الناس على البيت بعدما افتقدوا الشيخ جبريل في صلاتيْ الظهر والعصر على غير العادة فعلموا أنه مريضٌ!

مرَّت الساعات مملَّةً وبطيئةً أكثر من ذي قبل!

في انتظار عودة الجَدِّ من عند الطبيب.. جلستْ زوجة عمي نصيحة – رحمها الله– تحكي للجميع كيف أنه عندما أحسَّ بالتعب طلب إليها أن تخرج لترسل إلى والدي من يأتي به.. كان طلبًا يبدو مستحيلًا.. فالناس صيامٌ.. والحرُّ قائظ.. ولا يوجد من يفكر في الذهاب إلى حقله في ذلك الوقت!

---

(1) توفي رحمه الله يوم الخميس 20 رمضان 1406 هـ الموافق 29 مايو 1986 م عن عمر ناهز ستة وثمانين عامًا.

قالت له بامتعاض: ولكن لا أحد يُنتظر مروره من هنا؛ قال لها: بل اخرجي فسيمر «حسن لبن» بسيارته بعد لحظات!!

تقول -رحمها الله- بعد ذلك: قلتُ في نفسي لعلَّ تقدُّم السِّنِّ بالرَّجل جعله يتخيَّل مرور السيارة في هذا المكان النائي.. فخرجتُ لأجلس أمام المنزل بعيدًا عن إلحاحه.. فربما وجدت مارًّا..

مرت دقائق.. وكانت المفاجأة!!

لقد رأت سيارة الرجل ذاته تلوح في الأفق!!

لم تصدق عينيها.. لكن هذا ما حدث!!

* * *

خلف النافذة جلستُ.. كَمَدًا أترقَّب وصول جَدِّي.. كانت تدور برأسي الوساوس وتحاصرني الأسئلة:

هل يموت جدي اليوم؟!

وإذا مات فمن يحفِّظني القرآن؟

إن جدِّي الآخر -لوالدتي- أبو عبيدة يضرب التلاميذ كثيرًا.. رأيته يُسرِف في عقابهم؛ فأقسمت ألا أذهب إلى كُتَّابه ولو زائرًا!!

ها هو جدي قد وصل.. لكنه محمولٌ!! أيقنت حينها أنه الفراق!!

الإرهاق بادٍ على وجه أبي كثيرًا.. كأني أراه حزينًا لأول مرة!!

سُجِّي جدِّي على السرير وبجانبه ابنُ عمي «محمد علي» الذي لم يتعد عمره حينها أربعة أشهر!!

تحلَّق الجميع حوله: الأهلُ، والجيران، والمُصلُّون، والتلاميذ.. يبدو أن أحدًا لم يغب!!

مع قرآن المغرب أفاق قليلًا!!

تكلم في إعياء شديد!! كان يردد الآيات مع القارئ!!

ناشده والدي أن يُفطر؛ فأَبى؛ وقال: لن أُفطر اليوم؛ دعني ألقى الله صائمًا!!

ألحَّ والدي كثيرًا، وكذا الحاضرون دون جدوى!!

أُذِّن للمغرب؛ عبثًا حاولوا إيقاظه.. تركوه قليلًا.. استفاق مرة أخرى.. فرح الوالد وهَمَّ بالخروج من الغرفة قائلًا: سآتيك ببعض الشوربة التي أعدتها أم الوليد سهلة البلع والهضم!!

قال الجد: يا ولدي؛ لا تتعب نفسك؛ فلا وقت!!

قال الوالد وقد اقترب أكثر من الباب خارجًا: ربنا يعطيك طول العمر يا أبي!!

لم يكمل والدي كلماته!!

تشهَّد الجد وشهق شهقته الأخيرة؛ ليلقى ربًّا كريمًا أحسبه -والله حسيبه- قد أحسن وفادته لقاء ما قدَّم لدينه!!

* * *

أظلمت الدنيا في وجهي!!

بكيتُ بحرقة كما لم أبك من قبل.. وكما لم يبك الآخرون!!

كأنَّه جدي وحدي دون غيري!!

افتقدتُ شيئًا مني!! وأنا أَلْصَقُ الناس به!

كم أخذت بخطام دابته!! كم توكأ عليَّ في ذهابه ومجيئه!!

كم جالسته في المسجد تحت شجرة التوت العتيقة!! يتجاذب

أطراف الحديث في أدب لا مثيل له!! كم رأيت الناس يُكبرونه ويُجِلُّونه لعلمه وتواضعه!! كم وكم!!

* * *

مات الجد وبقيت ذكراه!!
وبقي أبي محبًا لوالده مخلصًا لذكراه وفيًا لتلاميذه حفيًا بهم!!
رحمكَ الله يا جَدِّي!
كنت نعم العالم العاملَ!!

* * *

هامش: ما إن مات جدي حتى دعت أخته -رحمها الله- أن تموت كأخيها في رمضان؛ ولم تبرح بيتنا .. ولا غرفة أخيها التي مات فيها إلا بعد مرور عام بالتمام، لقد ماتت هي الأخرى في رمضان الذي يليه!! وفي العشر الأواخر!!
رحمها الله رحمة واسعة وألحقنا بهما في عليين!!

* * *

معلم الفقراء[1]

هكذا أطلقوا عليه؛ لأنه كان يُعلِّم الصبية القرآن الكريم ومبادئ القراءة والحساب، وينفق عليهم من دخله المحدود!

هو جدي لوالدتي الشيخ أبو عبيدة.. في إيتاي البارود.. وعلى يديه تعلَّم أبناء البلد وما جاورها من القرى الأخرى..

أما والده «حسن أفندي أبو بركة»؛ فكان مراسلًا لصحيفة الأهرام بمحافظة البحيرة في أيام الملكية، وقيل إنه كان يرافق الملك فؤاد ضمن الصحفيين والمراسلين وكاد أن يتسمم، إذْ كان السُّم قد دُسَّ للملك وحاشيته؛ فأصاب الأستاذ حسن بعضه؛ لكن الله سلَّم!

كان «أبو عبيدة» طفلا لا يكلُّ ولا يملُّ من اللعب و«العَفْرتة» كما وصفوه، حتى كان مرة يلعب عند القطار فتعلق جلبابه به ففقد إحدى ساقيه، وتهشَّمت رأسه حتى فقد جزءًا كبيرًا من عظامها!

ويبدو أن هذا الحادث كانت نقطة فارقة في حياته؛ فاتجه إلى تحصيل القرآن الكريم ومدارسة العلم، ثم تفرَّغ لتعليم الصِّبْية، وهناك ذاع صيته، وتقاطر التلاميذ عليه من كل فجٍ يلتمسون العلم!

كان يأتيه الطفل الفقير فيكسوه ملابس جديدة ويعطيه ما يعينه من كتب وكراريس بدلا من أخذ أجرة عن تعليمه!

---

(1) توفي رحمه الله رحمة واسعة في عام 1985م.

كان ذا بصيرةٍ عجيبةٍ.. حدثني غير واحد قائلًا: كان الشيخ يقول لنا ونحن جلوسٌ تحت الدِّكَّة عند قدميه: ابن فلان ده هيبقى دكتور، وابن فلان ده هيبقى مهندس، وابن فلان ده هيطلع من التعليم... وهكذا، يُقسم الرجل: ووالله مرَّت السُنون وكان ما قال الشيخ؛ حتى «فلان» قال عنه إنه سيكون «عربجيًا» -ولم تكن هذه مهنة أبيه ولا أحدٍ من أهله- فكان ما قال الشيخ أبو عبيدة، وصدقت نبوءاته.

ومن طرائفه أن رجلا جاءه يسأل عن ولده كيف تحصيلُهُ؛ فسأله الشيخ: كم تدفع له؟! قال: كذا قرش! قال: فلك أضعافها؛ وخذ ولدك من هنا؛ لأنه لا أمل فيه فضلًا عن شقاوته الزائدة!

* * *

أما عن كرمه فحدث ولا حرج، فقد عاش ومات ولم يدخر شيئًا، كم سألته جدتي أن يعمل حسابًا للزمن فلديه «كوم لحم» من الأولاد؛ لكنه كان ينفق ماله على الصبية في الكُتاب وعلى المشايخ وأبناء السبيل من الباعة الجائلين والمتسولين!

وإن تعجب فعجبٌ أنه كان يذهب ليشتري الأسماك من الإسكندرية، والفسيخ من دسوق، واليامش والبهارات والأعشاب من طنطا..

كانت المائدة تمتد لتشمل الرائح والغادي، يأتيه المشايخ وفيهم العميان ومعهم الأواني، فيأكلون ويحملون ما تبقَّى من الطَّعام، تقول والدتي: ووالله لقد كان الطعام ينفد على كثرته غير مرة ولا يتبقى لنا ما نأكله؛ فنعيد عملية الطهي من جديد!

ليس هذا فحسب، فقد كان يومه يبدأ من الفجر، يذهب إلى أم

فتحي «بائعة الطعمية» فيشتري منها كمياتٍ هائلةً من الفول والطعمية، وتبدأ رحلة التوزيع.. يُقسم والدي –رحمه الله– أن الساندويتشات كانت تطال الغني والفقير!

قابل عابر سبيل ذات مرة فأخذه وأحسن ضيافته في البيت، ثم طلب الرجل أن يبيت في المسجد رغم إلحاح جدي وتهيئة مكان له بالبيت، فذهب به الجد وتركه في حجرته، وجاء مع الفجر يحمل له بعض الطعام وكانت المفاجأة!

لقد سرق الرجل صنابير المسجد وكل ما وصلت إليه يداه!

ووجدتها جدتي فرصة لتنهى زوجها عن استضافة من لا يعرف، بل ومن يعرف؛ لكنه ظل على كرمه حتى مات!

وليس أعجب من أنه ترك جزءًا من بيته لجاره دون مقابل وسط ثورة عارمة من زوجته وأولاده، لكنه قال لهم: مساحة البيت كبيرة، وبيت الجار ضيق!!

كان –رحمه الله– شجاعًا في الحقِّ غير هيَّاب، ففي فترة الخمسينيات عندما كان المعارضون يُعلقون على أعواد المشانق كتب خطابًا لجمال عبد الناصر يسأله عما تحقق من ميثاق الثورة، ويشكو له حال البلاد والعباد، وقال له أصحابه وقبلهم زوجته: قُول على نفسك يا رحمن يا رحيم!

وجاءت سيارة..

كانت سوداء فارهة، نزل منها رجل ذو هيئة مخباراتية، طرق الباب فخرجت جدتي .. سألها عن جدي؛ فأدركتْ أنهم جاءوا للقبض عليه لا محالة..

كان أطفالها يلعبون ومعهم أبناء الجيران، فوجدتها فرصة فقالت

للرجل الذي سأل عن زوجها: يا بيه ده راجل دماغه تعبانة، أصلهم شايلين من دماغه عضم، شايف كوم اللحم ده يا بيه؟! دول كلهم ولاده.. يرضيك دول يتشرَّدوا؟!

نظر الرجل إلى الأطفال وفيهم الأبيض والأسود، والبحراوي والصعيدي، ثم ابتسم وقال لها: لا تخافي يا حاجة إحنا جايين نشوف طلباته إيه!

اتجه الرجل إلى الشيخ تتبعه ولولات جدتي ونحيبها؛ فوجده في كُتَّابه وسط تلاميذه، خلع نعليه، دخل إلى حرم المسجد وقال: جئنا إليك بتكليف من الرئيس عبد الناصر علشان نشوف طلباتك!

قال الشيخ: لا طلبات لي؛ أنا فقط كنت أسأل عن أهداف الثورة وما تحقق منها، لكن يبدو أن كله كلام في كلام! ثم أشار إلى طفل بائس كان جالسًا فقال له: قوم يا ابن فلانة.. شوف يا باشا الواد ده.. أمه مش لاقيه توكله.. مسئولية مين ده؟!

مش ده برضه مسئولية الرئيس؟!

طأطأ الرجل رأسه ووعده بأن ينقل كلامه للرئيس!

المهم تنفست جدتي الصعداء أنْ نجت رأس زوجها من مقصلة ناصر!

* * *

رحيلٌ وإفلاسٌ

لم يندمل جُرح أبي حتى رحلت أمي بعد أن أبت الحياة دونه، هي لم تمت أول أمس كما يظن الناس؛ لكنها ماتت يوم مات أبي –رحمهما الله رحمة واسعة!

شعور مخيف أن يجد الإنسان نفسه مفلسا صفر اليدين، بلا أب يتدبر أمره، أو أم تحنو عليه وتمنحه بركتها!

يوم مات رددتُ في نفسي قول القائل:

وكنت أمشي على رجلين معتدلا فصرت أمشي على أخرى من الشجر

والآن صدق علي قول أحدهم:

ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

مع انتقاص بدر هذا الشهر كانت حياة أمي تخفت شيئا فشيئا، طال صمتها، وصارت تنظر إلينا فتطيل النظر حتى ننبهها! علمت أنها تتملَّى الوجوه قبل الرحيل!

عندما حانت الساعة الموقوتة كان قلبها يتوقف شيئا فشيئا، كل من حولي يرى أنها أزمة صحية ستمر؛ لكني كنت على يقين أنها ستلقى الله في هذا اليوم.. يوم الاثنين الذي رحل فيه أبي هو الآخر!

تشبثت بيديها كثيرا، احتضنتها كما لم أحتضنها من قبل لعلمي أنه سيكون الأخير، دارت عيناها لكنها ظلت معلقة بي، كنت أحدثها فتحدثني بصعوبة، تشابكت أصابعنا وودت أنها لم تفارقني!! فكيف تفارقني وأنا محتاج إلى من يداوي جراحي! إلى من يدعو لي، إلى من يحبني مجانا!

تذكرت رؤية الأمس.. الأمس فقط .. منذ ساعات قليلة أبلغتني ابنة عمي أنها رأت أبي في أبهي ثياب والناس تزفه؛ فلما سألت قيل لها: إنه سيتزوج! كان فرحا بقدومها ومسرورا!

لم تطل اللحظات كثيرا، حملتها إلى المشفى وأنا أعرف أنها حتما ستموت، حاول الأطباء إنعاش القلب، لكني كنت أعلم أنها لن تعيش؛ لأن قلبها كان الرحيم معلقا بمن أحبته، أظنها كانت تسترجع حبه لها، وتتذكر ابنتها التي رحلت في ريعان شبابها تاركة وراءها طفلة رضيعة لم تبلغ الشهرين!

لك الله يا أمي!

صبرت على فقد الأحباب؛ فما قلت ما يغضب الرب!

علم الله أنك كنت طيلة حياتك تقومين الليل، وكفاك شرفا أن تكوني من القائمين والركع السجود!

أبشري فسيشهد لك موضوعك من السجود!

أبشري يا أماه فسيشهد لك مصحفك!

أبشري يا أمي فسيشهد لك الفقراء واليتامى الذين كنت تصليهم بأصول طعامنا لا ببقاياه!

أبشري بشهادة الناس الذين افتقدوا بشاشة وجهك وضحكتك التي لم تفارقك!

سيشهد لك السائلون وأبناء السبيل الذين كان بيتنا مثابة لهم وسدا لجوعتهم!

رحمك الله يا أمي!

رحمك الله!!

رحمك الله!!

ورحمة الله على أبي إلى يوم نلقاكم!

❊ ❊ ❊

ذكرى مؤرِّقة

كانت كلما أطلَّتْ علينا ذكرى حرب العاشر من رمضان (أكتوبر المجيدة) جلسنا إلى والدي -رحمه الله- ليحكي لنا حكاية الحرب إذ كان ممن شرَّفهم الله بالحرب والعبور.

كثيرًا ما كان يكره حديث الحرب، كان يتملَّكه الوجوم وتسيل دموعه حتى نشفق عليه!

رجوته كثيرًا أن يكتب مذكراته عن الحرب؛ لكن قلبه الرقيق لم يكن يحتمل أن يتذكَّر المآسي التي عاشها، ولا أصحابه الذين ارتقوا شهداء، ولا أنسى عندما كان يتحدث عن قائده «نور الدين» الذي رآه شهيدًا فبكى كثيرًا.. لقد رأيتُه وكل جزءٍ من جسده ينتفض كالمحموم، فنعم الوفاء يا أبت!

رحمك الله يا أبي!

لقد متَّ وأثر البيادة ظاهر في قدميك من كثرة ارتدائها طيلة أيام الحرب، ولم تلق تكريمًا من أحدٍ، بينما هؤلاء الذي لم يحاربوا ولم يُسهموا بشيء في بناء هذا البلد تُفتح لهم أبواب التكريم والنهب على مصراعيها!

في هذا اليوم لا أنسى أيضًا شكر أمي -رحمها الله- التي صبرت وصابرت، فقد كان أبي ممن قُطعت وسائل الاتصال بهم عقب الحرب وعاد أقرانه فظن الجميع أنه قد مات، حتى جدي وأعمامي قرروا وقتًا لتقبل العزاء في شهيدهم، إلا أمي، فكان قلبها على موعد معه لم يخلفه،

ولسان حالها يقول: إني لأجد ريحه!

أفخر أيضًا بالمحاربين من قريتي رحمهم الله جميعًا: الحاج محمد عبد الحفيظ جويدة، والحاج حسَّاب عبد الخالق الشاذلي، والمهندس عبد الغني سعد جويدة والحاج فتحي بلال والحاج فتحي عصفور وغيرهم كثير!

رحم الله أبي الجندي المحارب الذي أحب بلده وكان ممن استردوا الأرض وصانوا العرض.. وجعل الله جهاده في الحرب والعلم في ميزان حسناته!

فاللهم اجعل كل هذا نورًا له يوم القيامة، وأوزعني اللهم بره وبر كل أحبابه حتى ألقاه في مقعد صدق عند مليك مقتدر!

❊ ❊ ❊

الناجية بصمتها

سبحان الحي الباقي!

ماتت حماتي بعد سنوات عانت فيها صنوف المرض المختلفة!!

عجيب -والله- أمرها!!

ابتلاها الله؛ فصبرت، وزاد لها في البلاء؛ فشكرت!!

كنت أزورها فيعتصر الألم قلبي وأرثى لحالها؛ فأقول لها: أجرٌ ورفعٌ للدرجات، فتقول: الحمد لله، والله صابرة!

يشهد الله أني أعرفها منذ نحو عشر سنين ما أساءت إليَّ بكلمة..

امرأة ليست ككل النساء!

أحسبها من الناجين بصَمْتِهم؛ فقد كانت كثيرة الصمت لا تتكلم إلا إذا دعت الحاجة، وما سمعتها اغتابت أحدًا أو ذكرته بسوء..

كان قلبها معلقًا بالمسجد، حتى صلاة الفجر لم تكن تدعها صيفًا ولا شتاءً، ورغم اشتداد مرضها كانت تصر على أن يصحبها أولادها لتؤدي صلاة التراويح..

كانت تنفق في وجوه الخير إنفاق من لا يخشى الفقر حتى أتاها اليقين..

أمس قال لها شقيقها: ما رأيك أن آتيك بشربة ماء من المبرد الذي أوقفتيه على المارة؟! فبكت وقالت: ليتني كنت أملك الملايين حتى أنفقها!

امرأة ليست ككل النساء!!

وافيتها ليلة أمس فإذا هي تعاني السكرات، فلما دخلت عليها انتبهت لي ونادتني؛ فجلست وطلبت مني أن أقرأ ما تيسَّر من القرآن؛ فقرأت عليها سورة يس!!

كم كانت محبة للقرآن وأهله، حتى عندما ذهبت لخطبة زوجتي فأحسنت بي الظن وقالت: طالما هو من أهل القرآن فأهلًا به ومرحبًا، وهو ابني قبل أن يكون زوجًا لابنتي!

امرأةٌ ليست ككل النساء!!

كانت إذا حدث ما يُعكِّر صفو بيتي عنَّفت ابنتها، وذات مرة انتحت بي جانبًا -بعد أن خطَّأت ابنتها- وأسرت إليَّ قائلة: لأول مرةٍ أقول لك إنك المخطئ، ولم أشأ أن أقول ذلك أمام ابنتي حتى لا تتمادى في غضبها!

رحمك الله يا أمي..

أحببتك -والله- حبًّا شديدًا لدماثة خلقك وطيب نفسك!

يبكيك موضع سجودك ومكان قيامك!

يبكيك الفقراء والمحتاجون!

يبكيك الأهل والأقربون!

رحمك الله ووسع مدخلك وأجزل لك المثوبة والعطاء!

قامات وأعلام

الشيخ الغزالي وجَدَلٌ لا ينتهي[1]

من الصعوبة بمكانٍ أن يُراجع التلميذ أستاذه في رأيٍ قال به، أو أمرٍ مَالَ إليه، وتزداد الصعوبة إذا كان هذا الأستاذ بحجم المفكر والمؤرخ الدكتور عبد الحليم عويس، فالرجل يتمتع بوعيٍ كاملٍ لتاريخ الأمة الإسلامية وحضارتها، ودرايةٍ بأهم ما في التاريخ وهو فلسفته، ذلك الشرف الذي لا يحظى به كثير من المؤرخين الذين ينشغلون بالأحداث عن مغزاها.

ولقد شَرُفْتُ- ولا أزال - بصحبته الكريمة لما يربو على عشر سنوات أَنهل فيها من علمه وثقافته، كان فيها نِعْمَ المرشد والمعلم، وهو ما صعَّب من مهمتي في كتابة هذا المقال، فضلا عن تناولي لغذاء حافل بأطايب الطعام في منزله يوم الأحد الماضي 25 أكتوبر 2010م - أي يوم أن نُشر مقاله المعنون بـ «خواطر حول الصديق فهمي هويدي» بصحيفة المصريون. وهو ما كان كفيلًا بإثنائي عن تسطير هذا الرد الجميل.

ولكن الغذاء -متعدد الأصناف- لم يمنعني من مناقشة فضيلته في جزئية -بمقاله المشار إليه- تتعلق في المقام الأول بكلامه عن كتاب الشيخ محمد الغزالي رحمه الله -الذي تربطني به هو الآخر روابط الفكر والجيرة والمصاهرة - وهو كتابه الموسوم بـ «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»، حيث وصفه الدكتور عويس بأنه من أقل كتب الشيخ

(1) صحيفة المصريون 7 أكتوبر 2010م.

قيمة؛ والحق -فيما أرى- غير ذلك.

وحتى لا ينفرط عقد الموضوع بين أيدي القارئ الكريم أُوجز الكلام في عدة نقاط على النحو التالي:

أولًا: إن الكتاب محل النزاع صدر مطلع العام 1998م بدعوة من المعهد العالمي للفكر الإسلامي فأثار ضجة غير مسبوقة في الأوساط الفكرية سواء في الحقل الإسلامي أم على الجانب الآخر، وهو ما توقعه الشيخ الغزالي نفسه حين قال: «وفي هذا الكتاب جَرْعة قد تكون مُرَّةً للفتيان الذين يتناولون كتب الأحاديث النبوية ثم يحسبون أنهم أحاطوا بالإسلام علمًا بعد قراءة عابرةٍ أو عميقة».

وقد غالى البعض كثيرا في تسفيه الشيخ؛ وبلغت الوقاحة أقصاها حين اتهمه بعضهم بالكفر والزندقة وإنكارِ معلومٍ من الدين بالضرورة، حتى إن البعض أحصى عدد الكتب التي تصدَّت للرد على الكتاب فكانت 14 كتابا اتسم القليل منها بالموضوعية والمناقشة الهادئة، بينما كان البغض والشنآن سمة الكتب الأخرى، وهذا شأن من تتحكم فيهم أهواؤهم- حتى إن الشيخ نفسه قال عن ذلك: «لكن الشتم الذي أوجعني اتهام البعض لي: بأني أخاصم السنة النبوية». وهو كلام مردود على كل من تسول له نفسه أن يقول به؛ فقد عاش الرجل طيلة حياته مدافعا عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وسيرته العطرة، وليراجع من شاء كتبه «كنوز من السنة» و«فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء» وغيرها من الكتب التي تُنبئ عن حبٍ وتقديرٍ لشخص النبي الكريم- صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: يعتبر هذا الكتاب من أكثر كتب الشيخ الغزالي جَرأة، ويتفق

معه في هذا كتاب «هموم داعية» الذي يعتبر أكثر الكتب التصاقا بموضوع كتابنا هذا، وفيهما شنَّ الشيخ بأسلوبه اللاذع المعهود حملةً شعواء على التقليد والفهم الخاطئ للإسلام، وقد تعرَّض هذا الكتاب هو الآخر لحملة؛ ولكن ليست بتلك الضراوة.

ثالثًا: عالج الكتاب محل النزاع قضيتين مهمتين: أما الأولى فهي حجية السنة النبوية إذا تعارضت مع النص القرآني أو مع العقل، أو بمعنى آخر تغليب الدراية على الرواية، ومن الأحاديث التي رأى الشيخ فيها تعارضا مع القرآن «إن الميت يعذب ببكاء أهله» واحتج بموقف عائشة –رضى الله عنها– عندما سمعت حديث «.. إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه! لقد أنكرته، وحلفت أن الرسول ما قاله، وقالت ـ بيانا لرفضها إياه ـ «أين منكم قول الله سبحانه «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، ومن الأحاديث التي رآها متعارضة مع العقل حديث «فقء موسى – عليه السلام– عين ملك الموت».

وأما القضية الثانية التي أولاها الشيخ نفس الأهمية فهي ربط السُّنَّة بالفقه، أي أنه لا سُنَّة بغير فقه. والحقيقة أن الشيخ ليس أول من تكلم في هذا الأمر؛ فقد سبقته اجتهادات قديمة جدا، وأحاديث البخاري نفسها– ونحن لا نقلل أبدا من شأنها– تعرضت لنقد من جانب بعض الأئمة القدامى، فليس للشيخ القدح المُعَلَّى في هذا الأمر، ولا في القضية الثانية التي سُبق إليها أيضا بقرون.

رابعًا: نَعَم .. بالغ الشيخ كثيرًا في هجاء مخالفيه ووصف منهجهم بـ «الفقه البدوي» وهو ما أثار حفيظة الكثيرين ممن رأوا أنفسهم محسوبين على هذا الفكر؛ ولكن الشيخ كان مُحِقًّا في نقد التقليد الأعمى والاهتمام

بسفاسف الأمور دون عظائمها، وهو ما أدى إلى ركود الفكر الإسلامي واتجاهه إلى اجترار علومه وحضارته كأن الاجتهاد قد توقف عند عصر النبوة أو الراشدين، وأصبح طلاب العلم أسرى المتون والحواشي والشروح وشروح الشروح والتذييلات...إلخ

خامسًا: تناول الشيخ بالتحرير بعض القضايا الخلافية التي تثار كثيرًا مثل حكم الغناء والحجاب والنقاب، ومشاركة المرأة في الحياة العامة، وكلها -كما نعلم- تحتمل الخلاف الفقهي، وليس لها قدسية تمنع الاجتهاد فيها، وكل يؤخذ من كلامه ويُرد إلا النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي لا ينطق عن الهوى.

وأخيرًا..

فلابد لنا أن نعترف بأن الكتاب كان بمثابة الحجر الذي حرك الماء الآسن في بحيرة الفكر الراكد -وإن تجاوز قليلا لغيرته الشديدة على الإسلام- فإن ذلك لا يقلل من شأنه، فالكتاب محاولة جادة لمنهج جديد في المواءمة بين النصوص القرآنية والنبوية، وفي نهاية الأمر فالرجل له حق الاجتهاد، ولم لا ؟! فقد أُوتي من حظوظ العلم ما يكفل له أدوات الاجتهاد؛ فإن أصاب فله أجر؛ وإن أخطأ فله أجران..

نسأل الله تعالى أن يبلِّغه أجره كاملا غير منقوص، وأن يلحقنا به في الفردوس الأعلى مع خاتم الأنبياء وإمام حضارة المسلمين.

* * *

المحلاوي.. الزاهد[1]

لا زلت أذكر ذلك اليوم البارد من أيام الإسكندرية الجميلة.. كان كل شيء يبدو مبهرا.. البحر وقد خلا من المصطافين فلم تُحجب نضارته.. والهواء العليل يداعبنا فترفرف له قلوبنا..

حمل فريق العمل الكاميرات متجهًا صوب بيت هذا الشيخ المسنِّ ليسجل شهادته على التاريخ لقناة أزهري الفضائية..

كان المخرج والمصور كلاهما يُمنِّي نفسه بمكان متسع فسيح يُمكِّنه من ضبط الكاميرات بأريحية..

اصطحبنا الدليل -وهو الأستاذ محمد الكيك صاحب محلات بريوني وأحد محبِّي الشيخ- مُرحِّبا بنا وسرعان ما دَلَفَ بنا إلى أحد الشوارع المتفرعة من كورنيش الإسكندرية..

بدأنا في صعود درجات السلم بصعوبة بالغة زادها إرهاق السفر عبر الطريق الصحراوي من القاهرة إلى الإسكندرية..

كنا نصعد الطابق تلو الآخر بترقب متسائلين: لعلها هذه الشقة؟!

طال تساؤلنا كثيرا حتى كانت المفاجأة !!

الشيخ يعيش في حجرتين فوق السطح.. الحجرة الثانية -التي لم نرها- لا يمكن الدخول إليها إلا من خلال الحجرة الأولى التي نحن فيها.. ولم يكن السقف أكثر من ألواح خشبية متراصة بأناقة تقي الشيخ

(1) صحيفة المصريون، 18 ديسمبر 2012م.

وزوجته الحرَّ وقليلا من البرد..

لم تَخْلُ الغرفة النظيفة والمُرَتَبَة بعناية فائقة من الكراسي القديمة المتهالكة والكتب الصفراء التي ارتسمت عليها تجاعيد الزمن.. تماما كوجه هذا الشيخ الذي نقش الزمان على وجهه خريطة معقدة التفاصيل تُنبئ عن هموم ثقيلة تراكمت عبر السنين..

لا زلت أذكر الدهشة التي علت وجوه الفريق، فقد كانوا يتُوقُون إلى مكان أفضل من هذا يليق بالكاميرات –على حد تعبيرهم.

لم يقطع هذه الدهشة سوى عرض الأستاذ محمد الكيك أن ينتقل بنا إلى مكان آخر إلا أنه سرعان ما آب إلى نفسه مؤكدا أن الشيخ يأبى أن ينتقل إلى مكان آخر غير بيته..

همست في أذنه: هل للشيخ بيت آخر؟!

أجاب: لا والله، هذا المكان المتواضع فقط، عرض عليه بعض محبِّيه منازل فاخرة وشقق فارهة إلا أنه أَبَىَ العيش إلا في هذا المكان المتواضع!!

* * *

لحظات ودخل الشيخ بقامته الطويلة وجلبابه الأنيق وعصاه التي تستمد قوتها منه.. سارعت إليه لأسلم عليه وأُقبِّلَ يده؛ فقبضها.. عاودت الكَرَّة؛ فقبضها ثانيةً..

جلس الرجل خاشعا على الكرسي يتمتم ببعض الأدعية غير آبهٍ بمن حَولَه.. كنت مشغولا بالنظر في وجهه الذي علته علامات الرضا.. وتذكرت كيف يعيش بعض الدعاة في القصور الفارهة ويمتطون أثمن السيارات .. وكيف استبدلوا السرر الموضونة بالحصير.. والأرائك

الوثيرة بأعمدة المساجد.. وأطايب الطعام بالخبز الجاف!!

ظلَّ الشيخ في مجلسه وظللتُ على حالي تغالبني بعض الدموع الحائرة.. لم أكن أدري لماذا ولكنها كانت تغالبني!! ربما فرحا بلقاء الشيخ!! وربما إشفاقا عليه!! وربما انبهارا بزهده وقد رأيت أمثاله يرفلون في النعيم.. ولكني تذكرت قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ولا الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الدين فقد أحبه!!»

* * *

بدأ العمل ودارت الكاميرات والرجل يحكي بتواضعٍ جمٍّ عن عبدالناصر والاتحاد الاشتراكي وكيف انتقلت ملكية مصر من «الباشوات» إلى «السوبر باشوات» بعد أن تسلط العسكر على البلد.. ولم يكن الحديث لينتهي دون الحديث عن خلافه مع السادات والست حرمه التي أرادت أن تكون شجرةَ دُرٍ جديدة فتصدَّى لها الرجل بجسارة بالغة.. وكان جزاؤه أن زُجَّ به في غياباتِ السجن.. في ليمان طرة.

وبلغ الأمر أن الرئيس السادات عرَّض بالشيخ في خطبة شهيرة قال فيها: «بيتعرَّض لي أنا شخصيا وعائلتي... شيخ أزهري واخد العالمية والمفروض انه يعرف الدين الإسلامي وبعدين يدعي إنه داعية إسلامي .. تحدث بعد الصلاة بأنه لا توجد سيادة قانون في مصر لأن القانون لا يُحترم.. بيهاجم المعاهدة وبيقول إنها تعتبر سيناء في حكم المحتلة لأنها ستكون منزوعة السلاح، وأنه من البنود السرية للمعاهدة يعني أي كذب.. إجرام... سفالة... بذاءة كل ده ما يوفيش؛ لأنه لما يقف رجل

معمم ومن الأزهر الشريف علشان يقول بنود سرية وهي مش موجودة والله ما هرحمه بالقانون.. أهو مرمي في السجن زي الكلب».

فرغنا من تصوير الحلقات مع الشيخ، وكان قد وصل إلى درجة كبيرة من الإرهاق.. أومأت إلى الزميل مسئول الإنتاج فذهب إلى الشيخ ومعه آلاف الجنيهات لتسليمها إليه فرفض الشيخ، عبثًا حاول الزميل إقناعه بأن هذا عُرف القناة مع جميع الضيوف؛ ولكن الرجل قال إنه لا يتقاضى شيئا نظير دعوته.. اقترح عليه الزميل أخذ المبلغ والتصدق به على الوجه الذي يحب؛ فقال: يمكنكم أنتم التصدق به بالنيابة عنِّي..

يا إلهي!! إلى هذه الدرجة هانت عليه الدنيا؟!

استدعت ذاكرتي أحد الدعاة الذين ملأوا الفضائيات ضجيجا وظهروا بمظهر النُسَّاك في حين طَلَبَ من إحدى القنوات أن تعامله كنجم (STAR يعني)!!

تذكرت بالأمس هذه الزيارة لمنزل الشيخ عندما علمت بأنه محاصرٌ في مسجده ووسط محبيه، وكأن الفرنسيس -كما يحب الجبرتي أن يُسمِّيَهم- لم يبرحوا مصر بعد أن ضربوا الأزهر بالمدافع منذ أكثر من مائتي عام..

إن التاريخ سيذكر أن مسجد القائد إبراهيم قد حُوصر من قِبَلِ بعض المسلمين ممن يُسمون أنفسهم ثوارًا.. والحقيقة أن الثائر الوحيد في هذه الأحداث هو الشيخ المحلاوي الذي تكلم حين صمت الآخرون، ووقف أمام عبدالناصر في الوقت الذي كان شيخ الأزهر يسمي الرئيس الصلب بـــ (المُلهَم)، وانتقد السادات في الوقت الذي كان البعض يسميه بـــ (الرئيس المؤمن).

فسلامٌ على المحلاوي في الأولين والآخرين..

إنهم يسرقون كامل كيلاني

لم أتخيل يومًا أن أكتب مقالًا تحت هذا العنوان الصادِم؛ فكامل كيلاني (1897-1959م) الذي ارتبطتُ به كغيري من الأطفال الذين تربوا على قصصه من إندونيسيا شرقًا وحتى المغرب غربًا، ومن تركيا شمالًا حتى جنوب أفريقيا مثالٌ للأديب العربي الموسوعي متعدد المشارب، وما كان لنا ولا لبنيه من بعده أن نُضطر إلى الدفاع عن عروبة الرجل إلا في ظل ترويج الآلة الإعلامية الصهيونية زورًا وبهتانًا لـ«يهودية كامل كيلاني»، وهو الحديث الذي بات سخيفًا ومجوجًا!

كان خبرًا مثيرًا للضحك والمرارة في آن واحد عندما اتصل بي الأستاذ رشاد كامل كيلاني -رحمه الله- ليخبرني بأسىً بادٍ في صوته أن وسائل الإعلام الصهيونية توالي نشر أخبارٍ مفادها أن والده رائد أدب الأطفال هو يهودي ترجع أصوله إلى اليهود الذين عاشوا في منطقة عابدين بالقاهرة، وبالتالي فتراثه جزء من التراث اليهودي، وطلب مني في ذلك الآن أن أساعده في مواجهة هذه الأكاذيب من خلال وسائل الإعلام المختلفة؛ وعدتُهُ بذلك.

أغلقت الهاتف وانتابتني موجة أخرى من المرارة، إذْ مر بي شريط زياراتي المتكررة للأستاذ رشاد في المطبعة بمنطقة «باب الخلق» بالقاهرة

وكيف كان حرصه على نشر الإسلام في أفريقيا وأوروبا، وكم كان معنيًا بترجمة الكتب وطباعتها وتوزيعها في أنحاء العالم على نفقته الخاصة؛ بل كان يخصص عاملًا لإطعام الطيور السانحات في جو السماء، وتذكرت محاوراته مع الدكتور إبراهيم أبو محمد مفتي أستراليا الذي قال لي مرة: «إن رشاد كيلاني رجل بأمة، ولو قيَّض الله للأمة قِلةً من أمثاله لتغير حالنا إلى أفضل حال».

لقد كانت عاطفة رشاد نحو الدين طاغية بكل المقاييس، وكذلك إخوته وأولاده من بعده. تمنيتُ وقتها لو أُثير الموضوع في إعلامنا باعتباره حفاظًا على هوية الأمة وانتصارًا لرموزها، لكن أكثر وسائلنا كانت مشغولة بالأحداث الجِسامِ المتلاحقة التي كانت تمر بها مصر بعد 2011م، فلم يَجِدِ الموضوع كثير اهتمام إلا من مقدمي بعض البرامج القليلة التي لم تفِ بالغرض المطلوب.

إن الصهاينة مولعون -كعادتهم- بتزوير الحقائق وهدم الثوابت ونسبة كل نجاح ومكرمة إليهم، ومن ثم فليس غريبًا أن يدَّعوا يهودية كيلاني، وقد ادعوا من قبل أنهم بناة الأهرام وأصحاب الحضارة المصرية، ولا تزال الآلة الصهيونية تفجأنا يومًا بعد يوم بأخبار غريبة منها أن العالم فلانًا والمطرب الفلاني من أصول يهودية، وأن الأكلة الشعبية الأولى في بلد من البلدان يهودية الأصل، وأن كثيرًا من فولكلور بلد كذا في الأصل يهودي!

وهكذا لا تتوقف آلتهم عن الدوران في محيط الكذب والبهتان،

وعلى حين غفلة من العرب، وفي الوقت الذي تجاهلنا فيه عبقرية الرجل الذي بلغت كتاباته للأطفال زهاء الألف قصة وترجمت أعماله إلى لغات عدة، أبدى هؤلاء القوم اهتمامًا غير مسبوق بأدبه، فترجم منها اليهودي «شمعون لندن مان» عدة قصص لاقت استحسانهم حتى قرروا بعضها في مدارسهم ليتعلم منها النشء، وأصبحت كل كتبه المترجمة وغير المترجمة متاحة بـ«بيت بيرل» وهو معهد تعليمي بالقدس الشرقية، وليت الأمر توقف عند هذا الحد؛ فقد بالغ الكيان الصهيوني في غيه إذْ قام بإنشاء مركز في «تل أبيب» أُطلق عليه اسم «مركز كامل كيلاني لأدب الطفل والناشئة» وهو ما يعني أنهم اعتبروه رمزًا يهوديًا صِرفًا.

إنَّ حسَّ كامل كيلاني الديني الذي تصرُّ عائلته على نسبها القُرشي لم يكن ليغيب عنه حتى في ترجماته، فقد رأيناه يبكي مجد المسلمين في الأندلس، ويكتب من سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – قصصًا كشفت بجلاء عن إيمانه العميق بدوره أديبًا مسلمًا، ورغم ذلك يدعون أنه يهودي الأصل.

فمن لكامل كيلاني في هذه الحملة الصهيونية المغرضة التي تعمل على استلاب رموزنا وسحب البساط من تحت أقدامنا؟! أم سنكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا؟!

❊ ❊ ❊

محمد عمارة:
رجلٌ من فولاذ

يبدو أن هذا الرجل سيظل حديث الأجيال كما شيخه محمد الغزالي!!

يراه بعض الناس اعتزاليًا.. وبعضهم الآخر متشيعًا.. بينما يرى بعضهم فيه بقية من ماركسيته القديمة..

والحقيقة أن الرجل رمز للتفرد والإبداع والموسوعية، ويُحسب له جهده في إماطة اللثام عن الجوانب الغائبة في حياة مَن يُعرفون برموز التنوير أمثال: رفاعة الطهطاوي وسعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم ممن اقتنصهم العلمانيون وضربوا حولهم سياجًا منيعًا..

شرفتُ بالجلوس إليه في بيته وفي أماكن عدة.. ووفقني الله إلى تخصيص حلقة أسبوعية له على الهواء مباشرة مع الصديق الناقد الدكتور حسام عقل عندما كنت رئيسًا لتحرير برامج أزهري ومديرًا لإدارة برامجها..

وأسعدني بأن بادر مرة فأخبرني أنه قد قرأ مقالي بالأهرام عن «هواجس الدولة الدينية»، ونزل من نفسه منزلة حسنة!!

يكفيه نجاحًا أنه تولى رئاسة تحرير «مجلة الأزهر» فارتقى بها شكلًا ومضمونًا.. وارتفعت نسبة التوزيع أضعافًا كثيرةً..

وليس غريبًا أن يأتيه السفير الإيراني في بيته بعد نشره عدة كتب في

نقد الشيعة يطلب منه التوقف..

وأُشهد الله تعالى أنني حملت إليه رسالة من ممثل إحدى الحكومات الخليجية لدعم المجلة في توجهها ضد الشيعة؛ ولكن الرجل رفض ذلك بشدة وقال: سأتحرك في حدود إمكانات المجلة!

لقد نطق عمارة في وقت جبن فيه الآخرون..

وهتف في وقت غاصت الكلمات في حلوق من يدعون العلم..

صدع بالحق عندما اختار البعض المنطقة الرمادية؛ بل انحازوا إلى غير الحق خوفًا وطمعًا..

لسان حاله يقول دائمًا:

خلقتُ من الحديد أشد بأسًا * وقد بلي الحديدُ وما بليتُ!

هذا هو محمد عمارة لمن لا يعرفه يا سادة!!

فاشهد اللهم أني أحب هذا الرجل فيك.. فكن اللهم عونًا له وظهيرًا.. ولا تكله إلى غيرك طرفة عين.. واحفظه بما تحفظ به عبادك.. واجمعنا به في مستقر رحمتك!!

آمين آمين

الحيُّ عبد الحي[1]

أفزعني نبأ وفاة أستاذنا الدكتور عبد الحي الفرماوي -رحمه الله- الذي انضم إلى قافلة الراحلين الذين أدموا قلوبنا، ليتأكد لي يومًا بعد يومٍ أن الأرض تخلو من الطيبين.. فاللهم سلمنا من شرار خلقك!

عرفته -رحمه الله- منذ نحو عقد ونصف من الزمان وقت أن كنتُ أمينًا للجنة تطوير المناهج الشرعية برابطة الجامعات الإسلامية، وهي اللجنة التي كان يترأسها الأستاذ الدكتور صوفي أبو طالب وتضم في عضويتها أساتذة في شتى التخصصات من جامعة الأزهر وغيرها، من هؤلاء: الدكتور أحمد الطيب وقت أنْ كان مفتيًا ينتظر خلو منصب رئيس جامعة الأزهر، والدكتور علي جمعة قبل أن يكون مفتيًا للديار، والمستشار محمد بدر المنياوي -النائب العام الأسبق وعميد معهد الدراسات القضائية الأسبق، والدكتور أحمد طه ريان والدكتور مروان شاهين والدكتور محمد رأفت عثمان والدكتور أحمد معبد عبد الكريم... وغيرهم من رموز جامعة الأزهر والجامعات المصرية والعربية.

كان -رحمه الله- من أكثر الناس التزامًا بالوقت وإنجاز ما يُوكَّل إليه من أعمال، ولا أنسى أبدًا يوم تجمهرت حوله الزميلات اللاتي خلطن بينه وبين الدكتور زغلول النجار إذ كان يشبهه إلى حد بعيد، فلما ناديتُ الزميلات منبِّهًا ومعاتبًا؛ ضحك -رحمه الله- وقال: «سيبهم يا عم وليد، ده موقف متكرر

(1) كانت وفاته -رحمه الله- مع التباشير الأولى لصباح يوم الجمعة 17 ديسمبر 2017م.

معايا على طول، بيقولوا فيَّ شبه من أخينا زغلول».

ومما أذكره ولا أنساه أننا عقدنا اجتماعًا للجنة في دار الإفتاء؛ وجلس الجميع ينتظرون قدوم المفتي الدكتور الطيب الذي جاء معتذرًا لتأخر الطائرة التي كان قادمًا على متنها من الأقصر؛ ثم إنه جلس ليلتقط أنفاسه وقال إنه قادم من البلد بعد حضور «الحَضْرَة»، وكان مما قال إنَّ مضيفة الطائرة أخبرته برغبتها في ارتداء الحجاب؛ لكن شركة الطيران تمنع ذلك، وسألته إن كان عليها وزرٌ أم لا؟ يقول: فسألتها إنْ كانت مضطرةً إلى العمل أم لا؛ فقالت: نعم؛ قال: فلا عليك؛ لأن الله تعالى قال: «إلا ما اضطررتم إليه».. مرَّ وقت قصير لم يتحدث فيه أحد ثم انبرى الدكتور الفرماوي -رحمه الله- فقال: اسمح لي فضيلة الدكتور، هذا الكلام إن صدر عن عبد الحي أو الدكتور فلان وعلان فقد لا تكون له قيمته؛ لكنك إمامٌ ومنظورٌ إليك، فأين وجه الاضطرار الذي تتحدث عنه؟! هل الاضطرار إلى ركوب السيارات الفارهة والسكن بأرقى المناطق وتعليم الأبناء بمدارس أجنبية؟ ساد الصمت مرة أخرى، وقال الشيخ الطيب: والله ده اللي حصل يا دكتور. همستُ في أذن الدكتور الفرماوي وكان بجانبي: وهل تجب النفقة على المرأة أصلا؟! وهنا كانت الطامة!! قال رحمه الله: وزي ابننا وليد ما بيقول هي أصلا لا تجب عليها النفقة؛ لأن دي مسئولية الزوج! نظر إليَّ المفتي بمرارة، وأحسستُ حينها بالخجل لأنني لم أتوقع ذلك من الدكتور الفرماوي رحمه الله.

* * *

وأيام كنت معدًا للبرامج بفضائية من الفضائيات اتفقت معه على

تصوير حلقات قصيرة اسمها «وقفات دعوية»، وكان -رحمه الله- هينًا لينًا فرحب وما تأخر، ثم إن المخرج طلب منه التحدث قبل التصوير بأية كلمات حتى يتأكد من جودة الصوت؛ فما كان منه إلا أن دعا على حسني مبارك بالويل والثبور وعظائم الأمور؛ فقال له المخرج: هتودينا في داهية يا مولانا؛ فقال رحمه الله: عندك مونتاج قطع براحتك، وأنا أقول براحتي، ولا أقول إلا ما يرضي ربنا.

رحم الله المُفَسِّر الدكتور الفرماوي؛ فقد كان عالمًا ثبتًا يتدفق العلم غزيرًا من يده ولسانه، لينًا في غير ضعفٍ، قويًّا في غير عنفٍ.. شجاعًا لا يهاب أحدًا..

امتُحن كثيرًا في سنواته الأخيرة فصبر حتى وافاه الأجل المحتوم..

فاللهم رحمة تشمله به، ورفعًا لدرجته في جنات الخلد..

الفقيه المنياوي[1]

أذكر أنه في العام 2001م وفي إطار عملي في لجنة تطوير المناهج أُسندت إليَّ أمانة لجنة تطوير مناهج تطوير الفقه وأصوله وكانت اللجنة تضم عددًا من الرموز منهم الدكتور صوفي أبوطالب والدكتور محمد رأفت عثمان والدكتور علي جمعة والدكتور محمد كمال إمام..

الأبرز في هذه اللجنة كان وجود المستشار الدكتور محمد بدر المنياوي –العميد الأسبق لمعهد الدراسات القضائية، لم أكن أعلم شيئًا عن شخص الرجل إلا أنه مستشار وحاصل على الدكتوراه..

المهم أن الرجل كان قد اقترب من اتمام العقد التاسع من عمره.. ومع ذلك كان يصول في اللجنة ويجول.. كان حافظًا لآراء الفقهاء بشكل مدهش.. وكثيرًا ما كان يراجع أساتذة الفقه فيما يقولونه.. كما كان له إلمامٌ كبير بعلم الأصول.

في يوم اجتماع اللجنة كان الرجل يصعد السلم بصعوبة بالغة لذلك أوصيتُ الحرس في المبنى بضرورة الاتصال بي عندما يصل لآخذ بيديه ويجعل من جسمي النحيل عكازًا له.. ولكنه لم يكن ليسمح لي بحمل حقيبته العتيقة تواضعاً منه!!

---

(1) كانت وفاته رحمه الله في عام 2003م.

فقط.. يستند إليَّ في مشيته!!

كنتُ جالسًا ذات مرة فإذا بالدكتور محمد كمال إمام يقول له: فاكر يا سعادة المستشار أيام كنت حضرتك نائب عام حضرتك عملت كذا وكذا؟!

دهشت جدا لما عرفت أنه كان نائبًا عامًا، وبتلقائية سألته: صحيح حضرتك كنت نائب عام؟! ابتسم الرجل وقال: آه .. ما أنفعش يعني يا أستاذ وليد؟!

بسرعة رددتُ عليه بتلقائية أكثر: بس حضرتك محترم جدًا.. وطيب!

قهقه الرجل وقال: يعني النواب العموميين مش محترمين ومش طيبين؟!

قلت له: آسف جدًا سعادة المستشار.. مش عارف .. بس هي جات كده!!

رحمه الله رحمة واسعة

رومانسية الدكتور عبد الصبور

كنا في فندق «دبليو ماريوت» بالتجمع على أطراف مدينة القاهرة، جلستُ بجانبه أسأله في عدة أمور وهو يجيبني بتواضعٍ جمٍّ وبلا امتعاض!!

ناقشته في كتابه «أبي آدم» وسألته: لم هذا الكتاب يا أستاذنا؟! أليست هناك قضايا أهم من هذه الإشكالات؟! وبصراحة فالبعض يرى أنكم تثيرون جدلًا عقيمًا وتتبنون الشاذَّ من الآراء!!

ابتسم الرجل ابتسامته الرائقة، وقال: المشكلة أنَّ كل من قدحوا في الكتاب لم يقرأوه.. والكتاب يا بني يتحرك في حيز اللا محظور.. فهو لا يُحِلُّ حرامًا ولا يُحَرِّم حلالًا.. إنما هو محض اجتهاد.. فإن صادف صوابًا فنعمَّا هو، وإن جانبني الصواب فحسبي منه الاجتهاد!!

فجأة وجدته يسألني:

- أمعك هاتف نقَّال؟!
- نعم أستاذنا!! تفضل!!
- أنا لا أجيد التعامل مع هذه المخلوقات الجديدة!!

أملاني رقم المنزل فاتصلت به فإذا به يهاتف زوجته، وسمعت أجمل مكالمة عاطفية بين رجل وامرأة!!

- السلام عليكم.. كيف أنت الآن؟!
- .....

- وصحتك أفضل؟!

- .....

- الحمد لله، أُحسُّ أن صوتك أفضل، وهكذا هو دائمًا .. دافئ كعادته!!

- أنا رفضت أن أتناول شيئًا من طعام القوم حتى آكل معكِ!!

ظل الدكتور عبدالصبور يتحدَّث مدةً في الجوَّال كما كان يتحدث أحدنا مع مخطوبته، وللحقيقة كانت هذه المرة الأولى التي لا أريد لأحد المتحدثين -على نفقتي المحدودة- أن ينهي مكالمته رغم أن الدقيقة أيامها كانت باهظة.. أعني أيام الرنَّات، وقبل أن نعرف الرصيد المجاني جعل الناس يتحدثون بطائل وبلا طائل!

أنهى الرجل مكالمته؛ فبادرته مبتسمًا ابتسامة عريضة: أستاذنا.. ما كل هذه الرومانسية؟!

أحسستُ وقتها أني تسرَّعتُ في كلامي.. فربما لم ترقْ للرجل كلمة الرومانسية بما تحمله من معانٍ لرجل في مثل علمه وسنِّه وقامته!

ابتسم في أدبٍ بالغ ثم قال: يا بني، كيف لا أُحبُّها وقد خُطبتْ إليَّ سنواتٍ ولم أرها ولم ترني؟!

قلتُ: سبحان الله.. كيف ذاك أستاذنا؟!

قال: كنت معتقلًا ضمن من اعتقلوا بتهمة الانتماء للإخوان.. وكان معي أبوها -أو أخوها شكَّ كاتب هذه السطور- فخطبتُها وأنا في السجن لا أعرفها ولا تعرفني وظلَّتْ سنوات على العهد حتى خرجتُ من محبسي.. ولم يكن يربط بيني وبينها إلا خطبة شفوية وبضع خطابات نتبادلها.. وكان بعضهم قد نصحها أن تصرف النظر عن هذه الزيجة التي

لن تجني منها سوى المتاعب؛ ولكنها أبت ذلك!!

يقول: وخرجت من السجن فتزوجنا.. وشاركتني حتى في مهامي العلمية وفي الترجمة والتأليف!!

أفلا أحبها؟!

صمت قليلا.. وربما كثيرًا.. فكرر -رحمه الله- العبارة أكثر من مرة!

وهنا قبلت يده وانصرفت!!

وحمدتُ الله أن مخطوبتي لم تكن معي حينها وإلا قالت: أنا عايزة من ده!!

❊ ❊ ❊

محمود عمارة: أديبُ الدُّعاةِ[1]

لم أسمع في حياتي رجلًا تنساب اللغة من فِيهِ كالماء العذب السلسبيل كما كان الدكتور محمود محمد عمارة -رحمه الله- ولقد يسر الله لي معرفته عن قرب عندما كنت أمينًا للجنة تطوير العلوم الشرعية برابطة الجامعات وكان هو عضوًا في لجنة تطوير مناهج الدعوة الإسلامية.

كنت من قبلُ أعرفه عن طريق الإذاعة وأهيم بكلماته الموزونة المقفاة وأدائه الصوتي البديع، ولا أزال أذكر مقولته الرائعة في وصف المنافقين: «أولئك الذين استترت ضمائرهم وجوبًا كما يقول علماء النحو».. ولا يمكنني أن أصف سعادتي ولا سعادة والدي -رحمه الله- بتقديمه لتلاوة الصباح في السادسة إلا عشر دقائق.. ولا بحديثه الماتع في برنامج «حديث الروح».

ولقد سألته مرة عن سر بلاغته وبيانه فقال: الثلاثي!

تعجبت وسألته عن الثلاثي؛ فقال: الرافعي وقطب والغزالي، من قرأ لهم حاز من البلاغة قسطًا وفيرًا..

كان هذا الرجل عجيبًا حقًا!!

وكانت له حافظة أشد عجبًا، حتى لم يكن في حاجة إلى تدوين رقم

(1) الدكتور محمود محمد عمارة (20 مارس 1929 – 20 ديسمبر 2015م).

هاتفي؛ بل وجدته يقول لي: منذ سمعتُ منك رقم هاتفك وأنا أحفظه، ولا أحتاج إلى كتابته وتقييده.. كما كان خطه كسلاسل الذهب اللامع تراه فتنبهر من دقته وميزانه..

دعوته مرة لتسجيل بعض الوقفات القصيرة لصالح إحدى القنوات الفضائية؛ وكان الوقت المقرر للوقفة الواحدة ثلاث دقائق، فكان -رحمه الله- يتحدث ويتوقف مع نهاية الوقت تلقائيًا دون النظر إلى ساعته، وكاد صديقنا المخرج محمد ربيع وفريق العمل أن يفقد عقله بسبب ضبط الرجل للوقت تلقائيًا بدقة متناهية!

حدثته مرة عن مقولة لجدي الشيخ جبريل -رحمه الله- كان يكررها إذا رأى الصغار يتطاولون: «إذا أفتى الناس ديكٌ؛ فلا عجب أن يتولَّى أمر الناس كتكوت»؛ فكنت كلما قابلته ذكرني بها، سألني إنْ كانت من سَبْكِه أم من محفوظه فقلت: لا أعلم.

كان -رحمه الله- من ظرفاء الزمان، فكان يعرف نفسه بقوله: محمود محمد عمارة الأزهري المنوفي، وما كنت منوفيًّا برغبتي، لكن شاء الله لي؛ فسامحوني ولا تؤاخذوني!

ولقد حزنت لوفاته واغتممت، ذلك أنني كنت أجاهد النفس وأراودها لزيارته منذ فترة طويلة؛ لكن الأحداث المتلاحقة حالت بيني وبينه.

رحم الله مولانا الدكتور محمود عمارة، وأثابه خيرًا عن دينه ولغته وأمته، وألحقنا به في مقعد صدق عند مليك مقتدر!!

* * *

مجاهد الجندي..
مؤرخ الأزهر[1]

قليلون هم الذين ينذرون حياتهم للعلم.. يبذلون من أجله كل نفيس.. يعيشون بين الأخفياء.. لا يثيرون كثير ضجيج.. لا يُباهون بعلم حصَّلوه .. ولا بمالٍ جمعوه.. يواصلون العمل للعلم ويصلون الليل بالنهار من أجل العلم فحسب .. تتنكر لهم المؤسسات ويُقدَّم عليهم من دونهم من مدعيِّ العلم والثقافة.. تُفتح أمامهم السبل.. وتُذلل لهم الطرق.. ويُقدمون على أنهم قد حازوا العلم من أطرافه.. وما هم في الحقيقة إلا فقعات هواء لا تلبث حتى تزول.. «وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»!

عرفت الدكتور مجاهد الجندي -رحمه الله- عن قرب منذ عام 2001 مع بداية عملي برابطة الجامعات الإسلامية بصحبة ابن شقيقته صديقي وأخي الدكتور أحمد علي سليمان المدير التنفيذي لرابطة الجامعات الإسلامية؛ فعاينتُ حماسه الشديد للأزهر وحرصه على جمع كل ما يتعلق بتاريخه المجيد منذ كان فكرة حتى صار مقصد المسلمين وقبلة الدارسين عبر السنين.. وكان قريبًا من الشيخ جاد الحق شيخ الجامع الأزهر -رحمه الله-؛ إذ آنس منه حبًّا للأزهر ورجاله، كما ربطته رابطة قوية بالشيخ محمد الغزالي وقت أن كان مبعوثًا في الجزائر وكان الشيخ حارس الدين

(1) كانت وفاته رحمه الله في 25 ديسمبر 2018م.

واللغة في هذا البلد الذي أراد الغرب طمس هويته!

كان الرجل معنيًّا بعلم الأنساب والتدقيق في أصول العائلات، ولا أظنه سُئِل مرةً عن أصل من الأصول أو بطن من البطون إلا كان عليمًا بها وخبيراً بفروعها، حتى كان بعض الناس يسأله ولا يتوقع أن يجد منه جوابًا فيتفاجأ بمعلومات الرجل الثرَّة الغزيرة التي تنبئ عن عالم ثبت راسخ القدم في التاريخ.

عرفته -رحمه الله- بارًّا بتلاميذه وأهله برًّا لا مثيل له، كذلك كانت تربطه بأهل قريته وشائج قوية متينة؛ وهذا من طبع الكرام، فكم رأينًا أناسًا نسوا أصولهم وتنكروا لأهلهم ومسقط رأسهم، وقطعوا كل سبيل بينهم وبين بني جلدتهم، فلم يحظ أهلوهم منهم بشيء ولو يسير، وأذكر أنني دخلتُ معه -رحمه الله- في نقاش طويلٍ دام شهورًا؛ إذ كان -رحمه الله- يُصرُّ كلما لقيني على التأكيد أن الإمام محمد عبده من مواليد محافظة الغربية -نفس المحافظة التي ينتمي إليها الدكتور مجاهد- وأنا أُصرُّ على كون الشيخ من مواليد محافظة البحيرة التي أنا منها.

كان الرجل لين الجانب سموحًا جوَّادًا كريمًا يفتح بيته لطلاب العلم فيمدهم بما شاءوا من الكتب والمراجع التي لا يستطيعون الوصول إليها، وكان رحيمًا بهؤلاء معتزًّا بهم، وهنا لابد لنا من وقفة متأنية؛ فالعلاقة بين العالم والمتعلم ليست علاقة عابرة قائمة على المصلحة فحسب؛ لكنها آصرة علم مقدس لا تنفك عُراها أبدًا، فالعلم رحم بين أهله، وما نفع عالمًا بعد موته أكثر من علم يُورَّث؛ لأنه لو حظي بالولد الصالح الذي يدعو له سيكون ذلك لجيل أو جيلين؛ لكن العلم باقٍ إلى يوم يُبعثون.

لقد كانت حياته في العلم عجيبة كل العجب، فما رأيته مرة إلا

متأبطًا كتابًا أو ممسكًا بوثيقة نادرة، وكم أطلعني على أدوات نادرة للكتابة من عدة قرون، كان ينفق أموالًا طائلة للحصول على هذه النوادر التي تنوء بها المؤسسات الكبرى، ولو وجد الرجل دعمًا من الأزهر أو من المؤسسات المعنية لانتفعت الأمة بجهد وافر؛ ولوجدت المؤسسة الدينية الكبرى في العالم من يؤرخ لها عبر القرون.

ويوم انتقلتْ مشيخة الأزهر إلى مبناها الجديد تخلصوا من كثير من سجلاته القديمة كأنما يثأرون من تاريخه، فكان له -رحمه الله- نصيبٌ مفروضٌ من وثائقه النادرة التي كان ينتظرها مصير مجهول ربما كان الفَرْم أو الحَرْق، واصطحبها إلى مكتبته العامرة بإحدى ضواحي الجيزة حيث أكرم نزلها..

وقبلها تحصَّل على وثائق المسجد الأحمدي بطنطا من بائع «روبابكيا» فاشتراها منه وكانت مصدرًا مهمًّا لسِفْرٍ وثائقيٍّ كبيرٍ تحت عنوان «المسجد الأحمدي شقيق الجامع الأزهر»، وهو الجامع الذي أنشئ إبان دولة المماليك بأمر من علي بك الكبير، وقد تناول في هذا الكتاب تاريخ الجامع الأحمدي وأعلامه ودوره العلمي والحضاري.

* * *

كان -رحمه الله- ودودًا مجاملًا؛ اتصل بي منذ مدة وقال إنَّ لديه وثائق تخصُّ جدي لوالدي الشيخ جبريل كساب -رحمه الله- وقت أن كان طالبًا بالجامع الأزهر بالقاهرة في عشرينيات القرن الماضي ووعدني بها؛ وأكَّد لدي معلومة نزوحنا من المغرب العربي منذ قرون طويلة، وتواعدنا على اللقيا؛ لكنَّ الأجل المحتوم وافاه قبل أن يجمعنا لقاءٌ أخيرٌ؛ فرحمة الله عليه إلى يوم الدين..

أدهم: شمسٌ لا تغيب[1]

يبدو أن رثاء الأحبة لن يتوقف، ففي كل يوم يتخطَّف الموت حبيبًا بنفس المرض، وأصبحتُ على يقين -كما قلتُ مرارًا- بأن الأرض تخلو من الطيبين لأمرٍ يعلمه الله!

منذ ساعات وارينا التراب أخي الحبيب أدهم خضر.

عرفتُهُ منذ شببتُ عن الطوق شابًا فتيًّا حسن الخُلُق والخِلقة!

وعرفته طالبًا وضابطًا للاحتياط، وموظفًا، ثم طالبًا للحقوق بعد بكالوريوس التجارة، وفي كل مراحل حياته كان رجلًا شديد الذكاء مثقف الفكر حلو المنطق قوي الحجة لبيبًا..

كان -رحمه الله- من القلة القليلة التي تقرأ فتعي، وكانت لديه فطنة في تحليل الأمور بشكل مذهل، وتضمَّنت صفحته على الفيس بوك تنبؤات لأحداث سياسية تحققت على أرض الواقع وسط ذهولنا من قدرته على التحليل!

كان -رحمه الله- ودودًا هيِّنًا ليِّنًا، يلقى الجميع بابتسامة منبئةٍ عن قلب نقيٍّ ناصع البياض!

---

(1) كانت وفاته رحمه الله في 30 يناير 2018م.

مرض منذ سنوات فصبر، وكان بإمكانه أن يجد اهتمامًا بصحته لو كان في بلدة تكترث بأمثاله؛ لكن بلادنا تعق خيرة أبنائها وتحتفي بالأشقياء فقط الذين يسرقون أقواتها وينهبون مقدراتها، وقد عقَّته حين منعته من تولي وظيفة مرموقة كان حقيقًا بها، إذ تقدَّم للعمل بالقضاء وهو به حقيقٌ؛ لكن قُدِّم عليه من هم دونه في العلم والثقافة والفكر!

* * *

لا أقول إن أدهم رحل قبل أوانه فلكل أجل كتاب؛ لكن كان من الممكن أن يجد اهتمامًا من بلده التي خدمها ضابطًا للاحتياط ثم موظفًا يخدم من عرف ومن لم يعرف؛ لكن استهلكه الروتين القاتل، وتأخر علاجه كثيرًا حتى استشرى المرض في جسده وأنهك قواه!

لا أنسى آخر مرة زرته فيها، كان ممدَّدًا على سريره، وكما عهدته لم يفقد وسامته وهندامه، فقد كان أجمل مَنْ عرفت خِلقة، حتى كان مضرب المثل في الجمال، سلمتُ عليه وقبَّلت يده فلامني، وأنا -والله- محبٌّ له كما كان أبي -رحمه الله- يحبه، فكم جمعت بيننا أمسيات جميلة نتذاكر فيها الشعر والأدب وتطغى عليها السياسة منذ كنا نستمع إلى نشرات إذاعة الـ BBC وإذاعة مونت كارلو وصوت أميركا، ومنذ كنا نقرأ «الوفد» و«الشعب» و«الأسبوع» «الدستور».

رحتُ أودِّعه وقلبي يخفق، وهمس هامس في أذني: هل تكون هذه المرة الأخيرة التي ألقاه فيها؟! استعذتُ بالله من وساوس الشيطان، ودعوتُ له بالشفاء!

وددتُّ الجلوس معه والمُكْثَ بين يديه؛ لكنِّي تذكَّرت قول رسول

الله «فليُخفِّف».

ذهبتُ إلى القاهرة وعُدتُ على أمل اللقيا؛ لكنَّ يد الموت كانت إليه أسرع، وعلمتُ من أخي خالد ناصف أنه ذكرني في غيبوبته الأخيرة فاشتد حزني وتضاعفتْ كربتي!

ودعناه في جنازة مهيبة تقاطر فيها الناس من كل البلاد؛ فكانت شهادةً منهم بحبهم له!

فإلامَ يا رب أُفجع فيمن أُحب؟!

* * *

أعزِّي نفسي فيك يا أبا أحمد، ولست -والله- قلقًا بشأنك؛ فلم تك تترك فجرًا في الصيف ولا في الشتاء، وإنْ لم تلق وجه ربك إلا بكلمة حقٍّ قلتها وبحبك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم؛ لكفاك!

أخبرني من أثق فيه أنك كنت تذكرُ الصحابة الكرام في سكراتك، لاسيما سيدنا خالد بن الوليد الذي كنت تحبه كثيرًا كثيرًا، وأنك نطقتَ بالشهادتين وثبَّتك ربك بالقول الثابت في الحياة الدنيا -والله حسيبك- فالله أسأل أن يكتب لك أجر الشهداء!

كنت محبًا لدينك ووطنك ولأهلك، بارًا بوالديك وفيًّا!

برحيلك خسر الحقُّ صوتًا من أصواته في وقتٍ عزَّ فيه النصير!!

ها أنت تلحق بأحبابك: أبي الغالي، وكذلك عمي فتحي آدم -رحمهما الله- بعد وقت ليس بالطويل!

فأقرئهم منَّا السلام!

ولتقر عينًا بصبرك!

ولتقر عينًا بحبِّك وقد مررتَ في دنيانا كنسمة هواءٍ رطبةٍ في يومٍ شديد الحرارة!

ولتقر عينًا بشجاعتك يا زينة الشباب!

فاللهم إنا نسألك رفعًا لدرجاته، ومرافقة لنبيك صلى الله عليه وسلم في أعلى جنان الخلد!

وإنا لله وإنا إليه راجعون!

* * *

في الأدب والكتب

المَقَامَةُ الأدبيَّةُ
من الازدهار إلى الاندثارِ

المقامةُ فنٌّ من الفنون التي انفردت بها اللغة العربية عن غيرها من اللغات.. في بلاد الإسلام نَبَتَ وترعرع، وعلى لغة القرآن تغذَّى، وفي قصور الملوك والسلاطين كانت رعايته، وتعليم الناشئة العربية وأساليبها كان الدافع إلى كتابته.. طار بهذه المقامات القُصَّاص، وصارت متعة المجالس ترويها الأجيال، لكن دوام الحال من المُحال؛ فقد تراجع هذا الفن وصار أثرًا بعد عينٍ؛ فما هي المَقَامة؟ وكيف نشأت وتطورت؟ ومَنْ هُم أهمُّ أعلامها؟ ولماذا تراجعت؟ وهل من سبيل إلى استعادة هذا الفن مكانته اللائقة؟

والمقامة لغة: «موضع القدمين، والمُقام والمُقامة بالضم: الإقامة، والمَقامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس».

ويبدو أن معنى المقامة قد تطور مع مرور الزمن كما ذكر القلقشندي في صبح الأعشى حيث قال: «وسُمِّيت الأُحدُوثة من الكلام مَقَامة، كأنها تُذكر في مجلسٍ واحدٍ يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها» [14/ 124].

ويُعرِّفها الدكتور الطاهر مكي بأنها شِبه قصة قصيرة، تدور حول بطل وهمي، يروي أخباره راوية وهمي أيضًا، وبطلها رجل أحكم التحيُّل، وقصر همه على تحصيل الطفيف من الرزق، فأخباره تدور حول الكُدية والخداع، والاحتيال والتمويه، لا تربطها وحدة موضوعية، ولا

تحييها شخصية حقيقية، وإنما هي ميدان لعرض النكتة، وإظهار البراعة في التخلص من مآزق الحياة، وإظهار المقدرة اللغوية، تجمع شوارد اللغة، ونوادر التركيب، في أسلوب مسجوع أنيق، يعجب أكثر مما يؤثر، ويلذ أكثر مما يفيد [القصة القصيرة دراسة ومختارات ص 43]

نشأة المقامات:

أُثير كثير جدلٍ حول نشأة هذا اللون من الأدب؛ فمن ناحية زعم بعض الباحثين أن نشأتها كانت في اللغة الفارسية ومنها انتقلت إلى العربية؛ وهذا كلام لا يوجد عليه دليلٌ تاريخيٌّ؛ ومن ناحية أخرى اختلف بعضهم حول مُنشِئ هذا اللون من الأدب؛ فمنهم من قال إنه ابن دُريد الأزدي ومنهم من قال هو الجاحظ، وقالوا: بل أحمد بن فارس؛ لكن ما استقر عليه أغلب الباحثين أنَّ المنشئ الأول هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد المعروف ببديع الزمان الهمذاني (358هـ/ 969 م – 395 هـ/ 1007 م)، وهو من أسرةٍ عربيةٍ استوطنت هَمَذَان ببلاد فارس، وبها وُلد فنُسب إليها.

كان الهمذاني يُدَرِّس الطلاب فنون العربية؛ فإذا انتهى من درسه ألقى عليهم مقامة، وقيل إنه ألَّف في نيسابور وحدها أربعين مقامةً، وبالغ بعضهم كالحصري القيرواني فقال إنه ألف أربعمائة مقامة، فُقدت جميعها ولم يتبق منها إلا بضع وخمسون مقامة.

تقوم مقامات الهمذاني على شخصين أساسين: (الـرَّاوي) وهو عيسى بن هشام، و«بطل المقامات» واسمه أبو الفتح الإسكندري الذي قد يغيب اسمه في بعض المقامات القليلة، وتبدأ مقامات الهمذاني بإسناد الحديث إلى عيسى بصيغة واحدة: «حدثنا عيسى بن هشام، قال:..»،

حيث توحي هذه الصياغة بأن ما سيأتي من حديث هو أمرٌ واقعيٌّ لا شكَّ فيه.

أمَّا الإسكندري؛ فهو شخص متعدد المواهب، ومتقن للعربية، وحافظ للتاريخ والقصص، وفصيح الكلام، وعذب اللسان، وشديد المكر، يستغل كل هذه المواهب في الحصول على المال بـ«الكُدْيَة» والتسوُّل واستمالة قلوب الناس.

وتتعدد أغراض المقامة عند بديع الزمان الهمذاني؛ فمنها المدح، ومنها الذمُّ، ومنها الوعظ، ومنها الفكاهي كـ«المقامة المَضِيرية»، وهي أكلة عراقية قديمة معروفة.

يقول الهمذاني في هذه المقامة: «حدّثنا عيسى بن هشامٍ قال: كنت بالبصرة، ومعي أبو الفتح الإسكندريُّ رجل الفصاحة، يدعوها فتجيبه، والبلاغة يأمرها فتطيعه، وحضرنا معه دعوة بعض التّجّار، فقُدمت إلينا مَضيرةٌ، تُثني على الحضارة، وتترجرج في الغضارة، وتُؤذن بالسّلامة، وتشهد لمعاوية -رحمه الله- بالإمامة، في قصعةٍ يزلُّ عنها الطّرف، ويموج فيها الظُّرف، فلمَّا أخذت من الخُوان مكانها، ومن القلوب أوطانها؛ قام أبو الفتح الإسكندريُّ يلعنها وصاحبها، ويمقتها وآكلها، ويثلبها وطابخها...».

ثم يكشف الهمذاني عن سبب بغضه لهذه الأكلة المحببة لدى سواد المجتمع في ذلك الوقت فيقول: «دعاني بعض التُّجَّار إلى مضيرةٍ وأنا ببغداد، ولزمني ملازمة الغريم، والكلب لأصحاب الرَّقيم، إلى أن أجبته إليها، وقمنا فجعل طول الطَّريق يثني على زوجته، ويفدِّيها بمهجته، ويصف حذقها في صنعتها، وتأنّقها في طبخها ويقول: يا مولاي لو رأيتَها، والخرقة

في وسطها، وهي تدور في الدُّور، من التَّنُّور إلى القدور، ومن القدور إلى التَّنُّور، تنفث بفِيها النَّار، وتدقُّ بيديها الأبزار، ولو رأيتَ الدُّخَان وقد غبَّر في ذلك الوجه الجميل، وأثَّر في ذلك الخدِّ الصَّقيل، لرأيت منظرًا تحار فيه العيون...».

وبعد أن يُسهب المَضيف في وصف زوجته خَلقًا وخُلقًا، يتحوَّل إلى وصف حيِّه الذي يعيش فيه، ثم يُفصِّل في وصف داره وحيطانها وأبوابها وأثاثها، يقول ابن هشام: «وانتهينا إلى باب داره؛ فقال: هذه داري، كم تُقدِّر يا مولاي أنفقتُ على هذه الطّاقة؟ أنفقتُ والله عليها فوق الطّاقة، ووراء الفاقة، كيف ترى صنعتها وشكلها؟ أرأيتَ بالله مثلها؟ انظر إلى دقائق الصَّنعة فيها، وتأمَّل حسن تعريجها، فكأنَّما خُطَّ بالبركار، وانظر إلى حذق النُّجَّار، في صنعة هذا الباب، اتخذه من كم؟ قُلْ: ومن أين أعلم، هو ساجٌ من قطعةٍ واحدةٍ لا مأروضٌ ولا عفنٌ، إذا حُرِّك أنَّ، وإذا نُقر طنَّ، من اتَّخذه يا سيِّدي؟...»، وهكذا يواصل المَضيف سؤال الضيف ويحشو رأسه بحكايات وتفاصيل هو في غنىً عنها.

ويُواصل أبو الفتح حكايته: «ونعود إلى حديث المضيرة، فقد حان وقت الظَّهيرة، يا غلام الطَّست والماء؛ فقلت: الله أكبر، ربَّما قرب الفرج، وسهل المخرج، وتقدَّم الغلام، فقال: ترى هذا الغلام؟ إنَّه روميُّ الأصل، عراقيُّ النَّشء. تقدَّم يا غلام واحسر عن رأسك، وشمِّر عن ساقك، وانض عن ذراعك، وافترَّ عن أسنانك، وأَقبِلْ وأَدبِرْ، ففعل الغلام ذلك، وقال: التَّاجر: بالله مَنْ اشتراه؟ اشتراه -والله- أبو العبَّاس، من النَّخَّاس، ...».

ولا يزال الإسكندري يتلوَّى والرجل لا يكفُّ عن حكاياته، فيصرخ

مناشدًا المضيف: «فمتى الأكل؟ فقال: الآن، عجِّل يا غلام الطَّعام، لكنَّ الخوان قوائمه منه، قال أبو الفتح الإسكندريُّ فجاشت نفسي وقلتُ: قد بقي الخَبز وآلاته، والخُبز وصفاته، والحنطة من أين اشتُريت أصلًا، وكيف اكترى لها حملًا، وفي أيّ رحىً طُحن، وإجَّانةٍ عُجن، وأيِّ تنُّورٍ سُجر، وخبَّازٍ استأجر، وبقي الحطب من أين احتُطب، ومتى جُلب؟».

ولمَّا لم يجدْ الرجل فائدةً من الجلوس في انتظار الطعام يُولِّي مدبرًا ويتبعه صاحب البيت ليظفر به دون جدوى.

إنَّ هذه المقامة الطريفة التي حوت صورًا بلاغيةً من كنايةٍ وتشبيهٍ وجناسٍ وتقديم وتأخيرٍ وطباقٍ لم يقصد صاحبها الفكاهة في المقام الأول -كما قد يبدو لقارئها- لكنها تعليمية؛ إذ تحوى كمًّا غير قليلٍ من المفردات اللغوية التي يصعب على السامع أن يتحصَّل عليها، ثم إنَّ المقامةَ تهذيبيَّةٌ تنتقد واقعًا اجتماعيًّا وداءً استشرى وهو الثرثرة وكثرة الكلام، وفيها تعليم للنشء قيمة الصمت.

لماذا ازدهرت المقامة في أول نشأتها؟

خُلق الإنسان محبًّا للسرد بفطرته، والحكايات تأسر الإنسان صغيرًا وتظل تستميله كبيرًا، وقد نشأت المقامة في وقتٍ كان للقصة تواجدها القوي على الساحة الاجتماعية والأدبية، ويرى الدكتور سيد النساج أن التُّربة الأدبية كانت مهيَّأة وقت النشأة الأولى للمقامات لتغذية هذا النبات الجديد من حيث هو شكلٌ أدبيٌّ مناسبٌ لما كان سائدًا من ألوان وأساليب أدبية، فقد كانت هناك كتب السيرة مثل: «سيرة عنترة»، و«سيرة ابن طولون» و«سيرة هارون بن أبي الجيش»... كما كانت هناك «ألف ليلة وليلة» و«حكايات ابن المقفع»، واشتُهرت المناظرات

بين المتنافسين، ويبدو أن المقامة قد راقت للمُعلِّمين فأخذوا يُدرِّسونها طلابهم ويُحفِّظونهم إياها ليزيدوا من ثروتهم اللغوية ويُقوِّموا لسانهم ويُقدِّمون لهم أمثلةً حيَّةً من البلاغة العالية.

وحسب الدكتور الطاهر مكي؛ فقد بلغ النثر الفني مع المقامة في اللغة العربية قمة الإحكام والصنعة في ذوق العصر الذي شهد مولدها، وكان انتشارها عبر بقية العالم العربي سريعًا؛ فبلغت الأندلس أقصى حدوده في الغرب شمالًا في نفس العام الذي تُوفِّي فيه الهمذاني، وفي الأندلس كتب الشَّرِيشي أوفى شروح مقامات الحريري، وأخذت طريقها إلى لغاتٍ أخرى.

أثر الهمذاني في الأدب العربي:

إذا ذُكرت المقامات ذُكر بديع الزمان الهمذاني والحريري معًا؛ فإذا كان الأول هو المؤسس؛ فإن الثاني هو مَنْ مَنَحَ المقامة رونقها وجمالها، ورغم أن بعضهم كابن نباتة (ت 405 هـ) وابن ناقيا (ت 485 هـ) قد سبقا الحريري في كتابة المقامة؛ إلا أنه كان الأبرز، والحريريُّ هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري المولود بالبصرة (446هـ/ 1054م- 516 هـ / 1112م).

وقد أثنى الزمخشري على مقامات الحريري -وهو من معاصريه- فإنه لما وقف على نسخة من الكتاب قرأها وكتب عليها:

أُقســـمُ بـــالله وآيــاتِــه ومَـشْـعـرِ الحـجِّ وميقاتِه
أنَّ الحــريــريَّ حــريٌّ بأن نَـكـتُـبَ بـالـتـبر مقاماتِه

وضمَّت هذه المقامات خمسين مقامة كتبها الحريري على نهج

الهمذاني، وجعل راويها الحارث بن همام وبطلها أبا زيد السَّروجي، وهو أيضًا معروف بالكُدْيَة والحيلة مثله مثل أبي الفتح الإسكندري بطل مقامات الهمذاني.

وقد لقيت مقامات الحريري من الاهتمام ما لم تلقه غيرها بما فيها مقامات الهمذاني نفسه، وشُرحت هذه المقامات كثيرًا؛ حتى إنَّ حاجي خليفة ذكر في كتابه أكثر من خمسة وثلاثين شرحًا أقدمها شرح أبي سعيد الحلي وهو أحد تلاميذ الحريري، وأفضلها شرح الشريشي (ت 619 هـ)، كما ذكر أن ابن الساعي البغدادي (ت 674 هـ) قد شرحها في كتاب ضخم بلغ خمسة وعشرين مجلدًا [كشف الظنون 2/ 1787 وما بعدها]

وقد بدأ الحريري مقاماته بالمقامة الصنعانية وهي من أجمل ما كتب، يقول مستفتحًا: «حدَّثَ الحارثُ بنُ هَمَّامٍ قالَ: لَمَّا اقتَعَدْتُ غارِبَ الاغتِرابِ، وأنْأتْني المَترَبَةُ عنِ الأتْرابِ، طَوَّحَتْ بي طَوائِحُ الزَّمَنِ، إلى صنْعاء اليَمَنِ، فدَخَلْتُها خاويَ الوِفاضِ، باديَ الإنْفاضِ، لا أمْلِكُ بُلْغَةً، ولا أجِدُ في جِرابي مُضْغَةً، فطَفِقْتُ أجوبُ طُرُقاتِها مِثلَ الهائِمِ، وأجولُ في حَوْماتِها جَوَلانَ الحائِمِ، وأرُودُ في مَسارِحِ لَمَحاتي، ومَسايِحِ غدَواتي ورَوْحاتي، كريمًا أُخْلِقُ لهُ ديباجَتي، وأبوحُ إلَيْهِ بحاجتي، أو أديبًا تُفَرِّجُ رؤيَتُه غُمَّتي، وتُرْوي رِوايتُه غُلَّتي، حتى أدَّتْني خاتِمَةُ المَطافِ، وهدَتْني فاتِحةُ الأَلْطافِ، إلى نادٍ رَحيبٍ، مُحْتَوٍ على زِحامٍ ونَحيبٍ، فوَلَجْتُ غابةَ الجمْعِ، لأسْبُرَ مَجْلَبَةَ الدَّمْعِ، فرأيتُ في بُهْرَةِ الحَلْقَةِ، شخْصًا شخْتَ الخِلْقَةِ، عليْهِ أُهْبَةُ السِّياحَةِ، وله رنَّةُ النِّياحَةِ، وهوَ يطْبَعُ الأسْجاعَ بجواهِرِ لفظِهِ، ويقْرَعُ الأسْماعَ بزَواجِرِ وعْظِهِ، وقدْ أحاطَتْ بهِ أخلاطُ الزُّمَرِ، إحاطَةَ الهالَةِ بالقَمَرِ، والأكْمامِ

بالثَّمرِ، فدَلَفْتُ إليهِ لأقْتَبِسَ من فوائِدِه، وألْتَقِطَ بعْضَ فرائِدِه...».

وكما يلحظ القارئ الكريم؛ فقد حوت هذه القطعة من «المقامة الصنعانية» كمًّا كبيرًا من المعاني اللغوية والصور البلاغية سُجعت في تناغمٍ شديدٍ رغم أن مقامات الحريريِّ تعتبر أكثر تكلفًا من مقامات الهمذاني، حيث تحوي كثيرًا من الغوامض اللغوية والألغاز والجدل.

أشهر كُتَّاب المقامة:

فضلًا عن الهمذاني والحريري نجد كثيرًا من الكُتَّاب الذين كانت لهم سُهمتهم في كتابة المقامة الأدبية عبر العصور المختلفة، من هؤلاء -على سبيل المثال لا الحصر- ابن نباتة وابن ناقيا -كما أشرنا- والزمخشري وابن الجوزي (510-597 هـ) والسرقسطي (ت 538 هـ) والوهراني (575 هـ) وابن خفاجة، وأبو الثناء الآلوسي (1803 - 1854م)، وناصيف اليازجي (1800-1871م)، أحمد بن فارس الشدياق (1805-1887م) وإبراهيم المويلحي (1844-1906م).

أهمية المقامات:

قلنا إنَّ المقامة فنٌّ عربيٌّ خالص انمازت به العربية على غيرها من اللغات، فلا نجد شبهًا لها في اللغات الأخرى، حتى إن الدكتور علي الراعي يرى أن المقامة هي واحدة من أبرز منجزات الأدب العربي[المسرح في الوطن العربي، ص 39].

وتكمن أهمية هذه المقامات في كونها وعاءً لغويًا واسعًا يضم مفردات كثيرة متنوعة تصلح في مجال التعليم والتلقين، كما تحوي المقامات شواهد حديثيةً ولغويةً وشعريةً، وفوق هذا وذاك تقدم صورة مطابقة للحياة

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كما تُكسب القارئ خبرةً واسعةً في معرفة طرق الحيلة والدهاء، وتصقل تجاربه في الحياة.

تأثير المقامة في الأدب العالمي:

لم يتوقف تأثير المقامة على اللغة العربية فحسب؛ ففي بلاد فارس كتب القاضي حميد الدين البلخي (ت 559 هـ) ثلاثًا وعشرين مقامة باللغة الفارسية على نسق مقامات الهمذاني والحريري كما أشار هو في مقدمته.

وانتقلت المقامة إلى أوروبا عن طريق المسلمين في الأندلس؛ فارتدت ثيابًا غير ثيابها لقصور لغاتها عن مجاراة الترف اللغوي الذي تتميز به المقامة، عُرف هذا النوع فيما بعد بقصص الشُّطَّار، يقول الدكتور علي الراعي: «إن أثر المقامات الذي يعترف به دارسون عرب وغربيون، ربما كان أقوى أثرٍ مفردٍ تركه العرب في الأدب الغربي، فعن طريق محتال المقامة قام الأدب الاحتيالي في إسبانيا، وامتد من ثَمَّ إلى فرنسا وألمانيا وإنجلترا؛ ليكون الأساس لصرح الرواية الواقعي».

كما تُرجمت مقامات الحريري إلى اللغة العبرية على يد الخريزي المتوفى في الثلث الأول من القرن الثالث عشر، وقد ظهرت ترجمته لتلك المقامات عام 1205م، وهناك من حاكى هذه المقامات من العبريين مثل سالمون بن زقبيل.

بين الانحسار والعودة:

ومع مرور الزمن تراجع فن المقامة وندر كُتَّابها، لا سيما بعد ظهور اتجاهٍ ينادي بالتجديد وتجاوز الأسلوب القديم القائم على المحسنات

اللفظية باعتبارها نوعًا من الترف الذي لا طائل من ورائه، ويبدو أنَّ هذا الاتجاه قد آتى ثماره؛ فقد هُجرت المقامة كما هُجرت الكتابة المسجوعة التي كانت تُدبَّج بها الكتب وتُصاغ بها الخطب وتُكتب بها الرسائل، وبانحسار فن المقامة خسرت العربية لونًا فريدًا من ألوان الأدب.

إنَّ استعادة المقامة مكانتها اللائقة تحتاج إلى تضافر الجهود على مستوى المبدعين والمؤسسات المعنية، إذ لابد من إشاعة هذا الفن العربي الخالص عن طريق إعادة نشر كتبه من لدن الهمذاني حتى المويلحي والمتأخرين من كُتَّاب المقامات، ورصد الجوائز الأدبية للمبدعين في هذا المجال، والتشجيع على الدراسات الأكاديمية والحرة التي تتناول فن المقامة.

❊ ❊ ❊

عبد الله عسيلان..
عندما تُعشق الكتب

لم يكن الأستاذ العقاد مبالغًا عندما وصف الكتب بأنها «قديرةٌ على السَّفَر في رحاب الزمان قدرتها على السَّفَر في رحاب المكان»، فللكتاب قيمته التي أدركها الإنسان منذ زمن بعيد، فبه يعلمُ من جهلٍ، ويهتدي من ضلالةٍ، وإليه يأنس من وَحشةٍ، وهو الصاحب الذي لا يُملُّ حديثه، وقبله بقرون لم يبالغ أبو الطيب المتنبي حين قال مادحًا الكتاب:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سَرْجُ سَابحٍ * وخيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كتابُ

لقد دأب بعض الأدباء والمفكرين والسَّاسة والفنانين وغيرهم ممن يُسمَّون بالنُخَب أن يؤرِّخوا لحياتهم، متى ولدوا؟ وأين؟ ويؤصِّلوا لنسبهم ومراحل حياتهم المختلفة مرورًا بالتعليم الأَوَلِيِّ، وأهم المؤثرات في حياتهم، وأبرز المحطات التي مرُّوا بها، ولا مانع من التجمُّل وإيهام القارئ بعراقة النسب والعائلة، وتميُّز الأبوين وأصالتهما، والتظاهر بحُسن الشِّيَم؛ لكن اللغوي المحقق الدكتور عبدالله عسيلان كان له منحى آخر رآه الأجدر بالتأريخ، والأولى بالاهتمام والتقدير، وهو التأريخ لمكتبته الخاصة التي أمضى في جمعها نحو خمسة عقود كاملة يجني ثمرات المطابع من هنا وهناك، فجاب العالم شرقًا وغربًا يبحث عن الكتب النادرة ويلتقط المخطوطات الثمينة التي كانت تهب له سعادةً لا تُدانيها سعادةٌ.

من هنا نبدأ:

استهل المؤلف حديثه بنبذة قصيرة حول عُشَّاق الكتب في التاريخ، وكيف كان احتفاؤهم بالكتاب الذي مثَّل جزءًا لا يتجزَّأ من حضارتنا وثقافتنا، ثم أرَّخ لبداية مشوراه في درب عشق الكتب بعام 1373 هـ حين كان في المرحلة الابتدائية من التعليم وانتقل والده إلى مدينة جدة ليتولى أمانة صندوق الخاصة الملكية، كانت حكايات النساء أم عثمان وأم محمد البداية الحقيقية لهذا العشق؛ إذْ استطاعت أم محمد أن تستحوذ على عقلِ الصغيرِ بسردها الماتع لحكاياتها، وسألها الطفل عن مصدر هذه الحكايا المدهشة؛ فأخبرته أنها من كتاب «ألف ليلة وليلة»، حيث كان أبوها يحكي منه هذه القصص.

كان لابد من البحث عن هذا الكتاب الذي هزَّ كيان الصغير وشحذ ذهنه؛ ثم كان تعرُّفه إلى المكتبة العلمية لصاحبها محمد سلطان النَّمنكاني بالمدينة المنورة، وهناك بدأت علاقته تتوطد بالكتب شيئًا فشيئًا، وأخذ في الاطلاع على المخطوطات العتيقة التي كانت موجودة بالمكتبات حينئذٍ.. لم يكن يدري أنه سيصير محققًا من كبار المحققين الذين بذلوا أعمارهم في خدمة تراث الأمة.

الأزبكية والساعة الجوفيال:

يحكي عسيلان بشيء من السعادة كيف بدأت زياراته لسور الأزبكية بمصر، وهو سوق للكتب القديمة النادرة، وكيف حصَّل منها أحمالًا من الكتب المهمة التي أسهمت في تكوينه العلمي والاجتماعي، منها كتب التفسير واللغة والأدب، والنحو والصرف والفقه والسيرة،

وكيف تحصَّل على كتب الزيات والرافعي والعقاد وطه حسين وزكي مبارك وغيرهم من أساطين الثقافة في مصر والعالم من خلال هذا السوق التاريخي.

إن عشق عسيلان للكتب لا يفتر، وبالتالي فهو على استعداد دائم أن يبذل كل غالٍ ونفيس في سبيل الحصول على كتابٍ نادرٍ أو مخطوطٍ بكرٍ، فيروي أنه كان في سور الأزبكية عام 1383 هـ فإذا به إزاء مجموعة مائزة من المخطوطات؛ فتفاوض مع البائع على شرائها واتفقا على تسعة عشر جنيهًا مصريًّا، وهو مبلغ لم يكن متوفرًا لديه آنذاك، ومن ثم اضطر إلى بيع ساعته الثمينة ماركة «جوفيالjovial» السويسرية في محل قريب بوسط القاهرة ليخلِّص الصفقة من يد البائع.

وظل ولع عسيلان بالكتب يزداد يومًا بعد يوم، وتعدَّدت رحلاته إلى مصر وتركيا والهند والمغرب وغيرها من الدول التي كانت تحوي عددًا كبيرًا من المخطوطات والكتب النادرة، وفي الكتاب حديث عن المكتبة السعيدية في الهند وتفاوضه مع إحدى الأسرة العريقة في الهند لتصوير هذه المخطوطات، وعن شرائه مكتبة السياسي المعروف محمد صبري أبو علم باشا وما بها من مخطوطات وكتب نادرة.

ومن طريف ما يروي أنه اضطر إلى الذهاب إلى «القَرَافة» وهي مقابر قديمة بالقاهرة، بعدما علم أن أحد عشاق الكتب قد أوصى أولاده بدفن كتبه معه؛ فتفاوض مع ورثته وأقنعهم بأن الأفضل أن ينتفع الناس بالكتب قبل أن تأكلها الأَرَضَة، ومن ثم أخرجوها من المقبرة وكانت تحوي كنوزًا علمية بالغة الأهمية.

جولة في المكتبة:

ها هو المؤلف يتقمَّص دور المرشد السياحي، إنه يصحب القارئ فيعرض له كثيرًا من مقتنيات مكتبته الألفية في مختلف فروع المعرفة، فمثلا يتحدث تحت عنوان: السيرة النبوية في مكتبتي عن أهم المخطوطات والكتب التي تحويها في هذا العلم، ومنها: كتاب «المغازي» لمحمد بن عمر الواقدي، و«السيرة النبوية» لعبدالملك بن هشام المعافري، وكتب الشمائل النبوية مثل: «غاية السُّول في خصائص الرسول» للإمام أبي حفص عمر بن علي الأنصاري المعروف بابن الملقِّن، وكتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض، كما تحدَّث عن تطبيق منهج المحدِّثين على كتابة السيرة النبوية، والعودة بها إلى مصادرها الأولى.

وفضلًا عن السيرة النبوية المطهرة؛ فقد تناول المؤلف كتب التاريخ والتراجم، وكتب الرحلات، واللغة العربية والأدب والنقد والعَرُوض، كما خصَّص حديثًا حول المصنفات التي تناولت المدينة المنورة: تاريخها وفضائلها، وأسماءها، وقائعها، ومن عاش فيها من الأعلام، ومن مات بها، وأحكام زيارتها وآدابها، وغيرها من الموضوعات التي تدور حول المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وللعسيلان نفسه كتابٌ حول «المدينة المنورة في آثار المؤلفين والباحثين قديمًا وحديثًا».

مع أعلام الثقافة والفكر:

لم يكتف المؤلف بعرض أهم أركان مكتبته والعلوم المختلفة التي حوتها؛ بل قدَّم عرضًا آخر لأبرز الأعلام الذين اعتنى بعمل أرشيفٍ علميٍّ لهم يضم إنتاجهم العلمي وما دار حولهم من دراسات علمية

وما كتب عنهم من مقالات، ولعل أكثر هؤلاء الذين أولاهم اهتمامه مصطفى صادق الرافعي حيث أفرد له وحده نحو ثلاثين صفحة كشف فيها عن تأثره الشديد به وكيف كان سببًا في تنمية ملكته اللغوية والنقدية، وينظر إلى الرافعيَّ على أنه ظاهرة فريدة في البيان العربي إذْ يملك قلمًا راعفًا، يكتب فيترك قارئه باحثًا وراء إبداعاته البيانية وصوره التعبيرية متأملًا فيما تنطوي عليه من أفكار الكاتب وأحاسيسه ومشاعره، فيعيش لحظات انبهار بسبب من تلك القدرة على استحضار مفردات اللغة التي يمتلك قيادها وزمامها، وتأتي إليه طيِّعةً، يحيلها من لغة معجمية إلى لغة شاعرة. كما تناول الدكتور عسيلان عدة شخصيات أخرى بالحديث مثل: الأستاذ عباس محمود العقاد، والدكاترة زكي مبارك، والأساتذة: إبراهيم عبدالقادر المازني والأستاذ حمد الجاسر، والأستاذ محمد ناصر العبودي.

مع الورَّاقين والمكتبات:

كما عرَّف الدكتور عسيلان بأهم العلوم التي حوتها مكتبته، وأهم أعلام المؤلفين الذين خصص لهم ركنًا خاصًا في مكتبته؛ تناول بالحديث عدة مكتبات في السعودية ومصر وغيرها، من هذه المكتبات «مكتبة خربوش» التي كان يتردد عليها أثناء دراسة الدكتوراه في مصر، وكان صاحبها هو الشيخ علي خربوش الذي كان محبًا للكتب وذا درايةٍ واسعةٍ بنوادرها، فلا تكاد تسأله عن كتابٍ من الكتب إلا وله به معرفةٌ وإحاطةٌ.

وقدَّم المؤلف وصفًا تفصيليًّا للمكتبة وما بها من أرفف ومطبوعات وربطات الورق القديم، وذكر أهم الكتب النادرة التي تحصَّل عليها من المكتبة ومنها: «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، و«محاضرات الأدباء» للراغب الأصفهاني، و«مجلة مجمع فؤاد الأول» أو مجمع اللغة

العربية بالقاهرة فيما بعد، وغيرها من الكتب التراثية التي أفاد منها كثيرًا في مسيرته العلمية.

النوادر والإهداءات:

وإتمامًا للفائدة ومواصلة للإمتاع؛ ذيَّل عسيلان كتابه ببيانٍ بأهم الكتب النادرة التي حوتها مكتبته الخاصة، ويريد بالنادرة -كما أبان هو- تلك التي تكتسب ندرتها من حيث قدم تاريخ الطبعة، وموضوع الكتاب، والمطبعة التي صدر عنها، وقد لا تجتمع هذه الأمور في كتاب؛ فبعض الكتب قد لا يكون تاريخ طبعه قديمًا جدًا، وليس له حظٌّ من حيث موضوعه، أو المطبعة التي قامت بطبعه، وبعضها قد تجتمع فيه الأمور كلها تاريخًا وموضوعًا ومكان طبع.

وحسب عسيلان؛ يتراوح عمر الكتب النادرة في مكتبة عسيلان بين المائة والمائة والخمسين سنة، فمثلا كتاب «تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين» للشيخ عبدالله الشرقاوي طبع بمطبعة مصطفى وهبي عام 1281 هـ وهو ما يعني أنه قد مضى على طباعته ثلاثٌ وخمسون ومائة سنة، ومن الطريف أن بعض هذه الكتب عليها إهداءات بخط المؤلف نفسه، وهو ما يُكسب الكتاب أهمية أكبر.

ورغم الجهد المبذول في الكتاب؛ فقد شابته بعض الأمور التي لا تُقلل من أهميته، من ذلك تكرار بعض الموضوعات في أكثر من موضع، كحادثة بيع ساعته في سوق الكتب القديمة لشراء بعض الكتب النادرة، وحديثه المتكرر في غير موضع عن «مكتبة شستربتي»، و«المكتبة السعيدية» بالهند، والتعريف بالمكتبات أكثر من مرَّةٍ، مثل حديثه عن «مكتبة خربوش»، واعتماده على التأريخ الهجري فحسب، ولو قابل التواريخ بالميلادية في

كل الكتاب وزاوج بينها؛ لكان أقرب إلى ذهن القارئ وأبعد له عن الإشكال، لاسيما أن أكثر الدول لا تتعامل بهذا النوع من التأريخ، لكن يبقى الكتاب محاولة رائدة في التأريخ لمكتبة أنفق صاحبها فيها من عمره ووقته وماله وتعهدها بالسقيا حتى أينعت، وأظنها ستكون سُنَّة حسنة بين المفكِّرين والمحقِّقين للتعريف بمكتباتهم العلمية.

والحقيقة أن لغة الكتاب لم تكن بالتقريرية الجافة؛ لكن الكاتب مزج بين اللغة التقريرية وبين اللغة الأدبية في ضفيرة تدهشنا أحيانًا كثيرة؛ فنجد مناجاة له يستنطق فيها الكتب، يُحدِّثها، ويبثها مشاعره الدافئة، ليس هذا فحسب، لكنها أيضًا بثَّته مشاعرها، فجاء الكتاب فريدًا في موضوعه وتناوله.

❊ ❊ ❊

ساق البامبو..
الإغراق في الإنسانية

حقيقة فرضت نفسها على واقعنا الأدبي المعاصر، فبعد أن ظلَّ الشِّعر ديوان العرب لعدة قرون يُسجل تاريخهم ويرصد عاداتهم، جاءت الرواية لتزاحمه -وربما لتنحيه- فخلقت لنفسها مكانًا بين الفنون الأدبية الأخرى التي تراجع بعضها أمام الرواية والشعر حتى صارت ديوان العرب المعاصرين بفضل التقنيات الحديثة والسموات المفتوحة التي جعلت من الرواية مادة مستهدفة من صُنَّاع الدراما؟! إننا باختصار: نعيش في زمن الرواية.

ومن التجارب التي ينبغي أن نتوقف أمامها باهتمام بالغ رواية «ساق البامبو» للروائي الكويتي الشاب سعود السنعوسي تلك الرواية التي اشتهرت على مدار العام الماضي بعد فوزها بالجائزة العالمية للرواية العربية «البوكر 2013».. لتفتح آفاقا جديدة في عالم الرواية العربية.

مِن رَحِم المجتمع الكويتي خرج «هوزيه ميندوزا» أو «راشد الطاروف» بطل الرواية لينقل إلى القارئ مشاعر الاغتراب التي يعانيها داخل وطنيه «الكويت والفلبين»، فليس ذنبه أن يكون نصفين: كويتي / فلبيني، يولد في وطن ويعيش في آخر، يحب كلا الوطنين ويضيقان به، وإن بدرجات متفاوتة، إن السنعوسي يؤكد في روايته أن الغربة ليست هي أن تعيش في وطن غريب؛ ولكن أن تعيش غريبًا في وطنك.

كما تكشف الرواية التناقض السلوكي لمجتمعاتنا حيث الانفصام بين القول والعمل، فجدته التي تؤدي صلواتها بانتظام تقر ببنوته لولدِها الوحيد الذي غيبه الموت، ولكنها لا تستطيع في الوقت ذاته أن تواجه المجتمع بدءًا من أزواج بناتها، ومرورًا بالجيران لا سيما جارتها «أم جابر»، وخروجًا إلى الحيز الأكبر حيث المجتمع الأوسع، وهو نفس الأمر عند عمته «هند» الناشطة السياسية التي تتصدى للدفاع عن حقوق الإنسان بينما تترك ابن أخيها فريسة عادات وتقاليد مترسِّخة، كل ذلك بسبب من أن «عيسى» الذي يحمل اسم جده الكويتي لم يحمل سحنة أبيه ولا سحنة أحدٍ من عائلة الطاروف، لكنها سحنة أمه «جوزافين» .. الخادمة.. الفلبينية.

* * *

نظرًا للصدق الفني الذي امتازت به الرواية، فقد استطاع كاتب الرواية جعل القارئ في حالة اتحاد معها، يتعاطى مع أحداثها صعودًا وهبوطًا، تتلون مشاعره حسب تغير مواقف بطل الرواية، فحتمًا ستكره جده «ميندوزا» الذي لا يفيق من شرب الخمر ولا يأنس إلا لمهارشة الدِّيَكة، ولا يكفُّ عن النداء في وحشية وضجر دائمين: هوزيييييه.. إلا أنك ستتعاطف معه كلما صاح (ص 61): «أنا ضعيف أنا وحيد»، وستشعر بالاشمئزاز من امرأة الكوخ «إينانغ تشولينغ» وحياتها، وتصيبك بالرعب، إلا أنك ستتعاطف معها أيضًا، أما جدته «غنيمة» فالأصل أن تبغضها، بيد أنه يمكنك التماس بعض العذر لها لكونها أسيرة عادات وهواجس اجتماعية قديمة، أما أخته «خولة» فستحبها لا محالة.

* * *

ولطبيعة الموضوع الإنسانية فقد جاءت الرواية حافلة بالمشاهد التراجيدية التي تعيد إلى الأذهان أسلوب المنفلوطي في «العبرات» و«النظرات» حيث استدرار دموع القارئ بتلقائية مدهشة، ولعل أكثر اللحظات صعوبة هي طرده من المنزل بعد دخوله خطًا مجلس العائلة التي هو جزء منها وعنصر منتمٍ إليها، ووقوفه خلف قضبان نافذته في حجرة الخدم يرقب الأطفال يمرحون يوم العيد، وقبل هذا وذاك حين وصل مطار الكويت فطلب منه موظف الجوازات الوقوف في صفوف الأجانب مع العمال الوافدين، وكذا الحواجز التي صنعتها جدته بينه وبين أخته، وموافقة جدته على ترشيحه للخدمة في بيت الجارة اللحوحة التي احتاجت إليه، وغيرها من المواقف التي جعلت القارئ يتعاطف مع بطل الرواية إلى درجة التوحُّد.

واستخدم السنعوسي عنصر الإيهام بذكاء روائي بدءًا من غلاف روايته الداخلي، حيث رسَّخ في ذهن القارئ أن الرواية لشخص فلبيني يسمى «هوزيه ميندوزًا» كتبها بلغته الفلبينية، وقام بترجمتها فلبيني آخر هو «إبراهيم سلام» الذي يعمل مترجمًا في سفارة جمهورية الفلبين لدى الكويت، ثم قدم تعريفًا بالمترجِم وكلمةً له أكَّدت أن الكتاب قد حوى بعض حواشٍ كتبتها «خولة راشد» وهي التي تصدَّت لتدقيق الرواية ومراجعتها. وهذا قريب مما فعله الدكتور يوسف زيدان في رواية «عزازيل» حين قدَّم روايته على أنها ترجمة لمجموعة رقوق أخفاها كاتبها بعناية قرب حلب ببلاد الشام مُوصيًا مَنْ يعثر عليها بعد موته أن ينشرها، ولم ينس زيدان أن يقدم وصفا للمخطوطة ويؤرِّخ لها.

لم تتخذ الرواية سبيل الرمزية حيث الإغراق في الفلسفة التي قد

تسبب المتاعب للقارئ؛ وإنما اختار صاحب الرواية لنفسه أن تكون روايته سهلة في غير تكلُّفٍ، حتى إن الكاتب لم يبخل على القارئ بشرح سبب تسمية روايته التي اتخذت من «ساق البامبو» اسمًا لها، وعبَّر عنها بحديثه مع نفسه ص 94: «لماذا كان جلوسي تحت الشجرة يزعج أمي؟ أتراها كانت تخشى أن تنبت لي جذورٌ تضرب في عمق الأرض ما يجعل عودتي إلى بلاد أبي أمرًا مستحيلًا؟.. ربما، ولكن، حتى الجذور لا تعني شيئًا أحيانًا. لو كنت مثل شجرة البامبو.. لا انتماء لها.. نقتطع جزءًا من ساقها.. نغرسه، بلا جذور، في أي أرض.. لا يلبث الساق طويلًا حتى تنبت له جذور جديدة.. تنمو من جديد.. في أرض جديدة.. بلا ماض.. بلا ذاكرة»

لقد كان يرى نفسه شجرة بامبو؛ لكنه لم يستطع ذلك.. فقط كان شجرة بامبو في وحدتها!!

ولأن هوزية أو عيسى الطاروف لا يزال يحب وطنه «الكويت» الذي ينتمي إليه بحكم المولد والنسب؛ فإنه لم يرمز إلى نفسه بالطحلب الذي لا يضرب بجذوره حيث لا أرض ولا مقرَّ؛ لأن ذلك سيعني حتما أنه لا ينتمي إلى أي وطن.

* * *

من الواضح أن الروائي أعد جيدًا لروايته؛ فقارئها لا يشك -ولو لحظة- في أن السنعوسي قد عاش في الفلبين حينًا من الدهر، وهو ما يجعلنا بين فرضيتين: إحداهما أن يكون السنعوسي قد سافر إلى هذه البلاد بعد أن واتته فكرتها ليراها رأي العين، والثانية: أنه اعتمد على

التحصيل المعرفي لتراث الفلبين وجغرافيتها وعاداتها عبر ما تيسر لها من المراجع والأعمال الدرامية وغيرها من الوسائل، وهو الأمر الذي نلمسه في روايات مثل «قمر على سمرقند» للمنسي قنديل، وبدرجة أقل في الروايات التي كتبها نجيب الكيلاني مثل «الظل الأسود» التي دارت أحداثها في إثيوبيا، و«عمالقة الشمال» في نيجيريا، و«عذراء جاكرتا»، و«ليالي تركستان».

أما عتبات النَّص المقتبسة من البطل القومي الفلبيني «خوسيه ريزال» فقد جاءت متسقة مع محتوى الرواية، غير أنها لم تخل من الرمزية التي تجعل القارئ يتساءل أحيانا عن علاقة العتبة بالنص، ولكن إجمالا فقد تم توظيف العتبات لتعبر عن أحداث الرواية بفنية عالية، كما استخدم السنعوسي عتباته ليعبر بها عن أمور مسكوت عنه مثل عتبة الجزء الأول ص 15 «عيسى.. قبل الميلاد» التي حملت مقولة ريذال: «لا يوجد مستبدون حيث لا يوجد عبيد».

* * *

حوت الرواية كمًّا من العبارات الحِكَمِية التي جمعت بين بلاغة العبارة والمعنى، مثل قوله: ص 303: «العطاء من دون حب لا قيمة له والأخذ من دون امتنان لا طعم له»، وقوله ص 304: «الحب الذي يجعل للأشياء قيمة»، وقوله ص 66 «إنه قَدَري، أن أقضي عمري باحثًا عن اسم ودين ووطن»، وقوله «بعض المشاعر تضيق بها الكلمات فتعانق الصمت»، ومثلها «صمت الآخر أحيانًا أشد رعبًا من نطقه بحقيقة لا نود سماعها»، وغيرها من العبارات التي نطق بها الكاتب متدثرًا ثياب الحكيم.

من اللافت أن الرواية قدَّمت رومانسية راقية، جاءت موفَّقة، في غالب الأحيان، غير متجاوزة للحدود الأخلاقية، فحب البطل لابنة خالته «ميرلا» قد عبر عنه بأسلوب راقٍ، كما عبَّر عن فترة مراهقته بطريقة لم تخل من حياء فطري أشبه بالغزل العذري المعروف في تراثنا العربي الممتد.

ولا شك أن الكاتب قد نجح في توظيف الأحـداث التاريخية والسياسية والاجتماعية ونظمها في روايته، مثل: غزو العراق للكويت وتوابعه، وحادث سقوط الطائرة الذي هزَّ الكويت، ثم موت أمير البلاد بالتزامن مع دخوله إليها قادما من الفلبين، وانتهاءً بمباراة منتخبي الكويت والفلبين سنة 2011م ضمن التصفيات المؤهلة لكأس العالم 2014م بالبرازيل، وهي المباراة التي عبَّر عنها في نهاية روايته بكمٍّ من المشاعر النبيلة التي جعلت القارئ يعيش حالة من الأسف والحزن البالغين على بطلها حتى بعد الانتهاء من الرواية.

* * *

واستخدام السنعوسي للتشكيل الطباعي متمثلا في علامات الترقيم، ونوع الخط، وتقسيم الصفحات، جاء متميزًا وإن تأثر بيوسف زيدان إلا أنه فاقَه في توظيفه لعلامات الترقيم، فجاءت الفاصلة والنقطة في بعض الأحيان لتؤدي معنى مسكوتًا عنه، وهي شجاعة تُحسب للكاتب في توظيف هذه العلامات بشكل مختلف عما أريد لها، فمثلا يقول في معرض حديثه عن «أدريان» -أخيه من أمه- ص 86: «استعاد كل شيء.. كل شيء سوى.. عقله»، وظلَّ على هذه التقنية حتى السطر الأخير من روايته

عندما يكتب: «سأترك ورقتي الأخيرة هذه لأتفرغ لمشاهدة وجه صغيري المطمئن في نومه بين ذراعي أمه.. أو في الغوص في عيني أدريان الغارقتين في .. الفراغ».

سيطر الولع بأساليب العربية وبلاغتها غير المألوفة على الكاتب مثل اعتماده كثيرًا على أسلوب التقديم والتأخير الذي منح الرواية نكهة مختلفة، كما في قوله ص 113 «ساحرة كانت.. ميرلا»، ص 121 «من أين له ذلك القلب.. ميندوزا»، وكقوله ص 184 «هلا أخفضت صوت التلفاز.. ماما غنيمة تقول»، كما أنه استطاع توظيف اللغة توظيفا حركيًا جعل منها صورة سينمائية متحركة كما في قوله ص 128 «ضجيج الدراجة النارية في الخارج يبتعد..يبتعد.. يختفي»، وكما في تعبيره عن صي اح جده المتواصل ليل نهار ص 83 «هوزيييييييه»، وكما في نداءاته ص146 «جوزافيييين.. بيدرووو.. آيدااا.. ميرلاااا».

رغم هذا كله، لم تخل الرواية من بعض الأخطاء اللغوية اليسيرة التي أراها مسيئة للرواية، منها عدم ضبط بعض المرفوعات والمنصوبات المعربة بالحروف، واللزوم والتعدي لبعض الأفعال -وإن أمكن توجيهه باعتماد نظرية الحمل على المعنى- وقد تكررت في الطبعات التالية حتى وصلت إلى الطبعة السادسة التي يعتمد عليها كاتب هذه السطور.

وإجمالا فرواية «ساق البامبو» رواية تمثل صوتًا في مرحلة جديدة في الرواية العربية من حيث جودة الفكرة وعمق التناول واعتمادها على التقنيات الروائية الحديثة، كما تعتبر نموذجًا جيدا للروائيين الشباب،

حيث أثبتت جدارتها بالجائزة العالمية للرواية العربية البوكر 2013م، كما أثبتت أن الإبداع الروائي لم يتوقف عند جيل بعينه؛ وإنما هو امتداد طبيعي وسُنَّة من سُنن الإبداع الكوني.

ويبقى لزامًا على السنعوسي أن يقدِّم في قابل الأيام أعمالا أخرى تثبت جدارته بهذه المكانة الرفيعة التي تبوأها بفضل روايته هذه، وهو أمر يحتاج إلى صبر ومثابرة.. وقبل هذا وذاك إلى توفيق.

* * *

قواعد العشق الأربعون

رواية «قواعد العشق الأربعون» للكاتبة التركية أليف شَفَق.. رواية فلسفية نتفق مع بعض أفكارها ونختلف أكثر؛ لكن تقنية السرد داخل الرواية فريدةٌ ومتميزة..

تنم الرواية عن دراسة الكاتبة الجادة للفلسفة وعلم التصوف والتاريخ، وهو أمر نفتقده كثيرا في روائيي هذه الأيام، حيث أضحت الكتابة الروائية أرضًا مستباحة لمن لا يملكون أدنى أدوات الكتابة.

إنَّ صوت الحكمة واضح في طول الرواية وعرضها.. ورغم غلبة الأسلوب الوعظي عليها إلا أنها لا يمكن أن تُؤتى في النقد من هذا الجانب..

ثمة أمر ينبغي الإشارة إليه وهو التضفير المحكم بين الأحداث رغم وقوعها في زمنين مختلفين يفصل بينهما نحو سبعمائة عام، ولا يشعر القارئ بالانتقال الفجائي كما في الروايات الأخرى، وكذلك استخدام أسماء فصول متكررة بأسماء الشخصيات الرئيسة في الرواية كان غريبا ولم يبعث الملل في نفس القارئ.. وإن كانت أغلب الشخصيات في الرواية رئيسة بداية من التبريزي ومرورا بالرومي وحتى سليمان السكران.

تملك شفق القدرة العالية على تصوير المشهد الواحد من زاويتين.. فأنت إزاء مشهد سينمائي محكم الإخراج يستخدم أكثر من كاميرا بجودة عالية، وهي تقنية نادرة في الكتابات الروائية، وليس كل الروائيين يحسنونها.. وما يلقاها إلى ذو حظ عظيم.

والكاتبة وإن كانت تدعو إلى إعلاء قيمة المحبة في عالمنا والتعايش وإشاعة السلام والأمن المجتمعي؛ فإنها ليست بريئة تمامًا، ففي طياتها أفكار مرفوضة شكلا ومضمونا كـ«وحدة الأديان» والترويج لنظريات صوفية كـ«وحدة الوجود» و«الحلول».. وهي نظريات دخيلة لا علاقة لها بتعاليم ديننا الحنيف..

كما تدعو إلى إسلام تغييبي بعيد عن الواقع ولا يكترث بالواقع.. وتنادي بالفصل التعسفي بين الدين والسياسة؛ بل بين الدين والعباد.

ولا يمكننا أن نغفل أمرًا مهمًا للغاية وهو الترجمة التي قدمها الأديب السوري خالد الجبيلي، فهي بحقٍّ ترجمة متميزة -وربما غير مسبوقة- رغم ما شابها من بعض الأخطاء اللغوية إلا أنها تعتبر من أروع الترجمات التي قرأتها وتذكرني بترجمات الشيخ شعلان لشعر محمد إقبال، فالمترجم شريك في الإبداع، وبإمكانه أنْ يضيف إلى رصيد الكاتب الأصيل أو يقدِّمه في صورة مشوهة تنفِّر القراء.

لكن في النهاية.. الرواية عمل أدبي أكثر من رائع يكسب القارئ متعة عقلية ويفتح آفاقًا للتفكير الجاد.

حليب أسود

«حليب أسود» جزء من السيرة الذاتية للكاتبة التركية «أليف شفق» أو «أليف شافاك» كما يطلق عليها بعضهم خطأ!

وبصرف النظر عن الاختلاف الكبير مع شفق في تبنيها لأفكار علمانية أكثر تطرفًا؛ فقد استمتعت بما كتبته في هذه المذكرات وإن بمعدل أقل من كتبها الأخرى!

تتناول شفق في مذكراتها أو روايتها قضية محورية ومهمة للغاية؛ حيث تحاول الإجابة عن سؤال محير: هل من الأفضل للكاتبة أن تنأى عن الزواج وتوابعه من بناء أسرة وإنجاب أطفال لتتفرغ لإبداعها؟! أم الأفضل أن تتزوج فتجمع بين متطلبات الأمومة والإبداع معًا؟!

ولقد أحسنت «شفق» نسج مذكراتها في قالب روائي يمزج ببراعة بين الحقيقة والفنتازيا؛ إذ جعلت من الأصوات المتباينة المتنازعة داخلها «جوقة أصوات الفوضى» وهن بنات بحجم أصابع اليد، تزن كل واحدة منهن بضع مئات من الجرامات فهناك «ماما الرز بالحليب» صوت الأمومة، والفتاة التشيخوفية الطموح، والفتاة العملية القصيرة، والفتاة المثقفة الساخرة، والسيدة الدرويشة، وهناك أيضًا صوت الأنوثة «بلو بيلي بوفاري».

أدارت الكاتبة حوارًا ماتعًا مع نفسها في تيمة أكثر متعة، وصورت الصراع المشتد داخلها، فثمة واحدة تدعوها إلى الزهد والتصوف، وأخرى تدعوها إلى المجون، وواحدة تُلحُّ عليها في نبذ فكرة الزواج،

وأخرى تُذكي فيها روح الأمومة، فكل واحدة منهن تمثل جانبًا من جوانبها الشخصية المختلفة!

يعِجُّ الكتاب بأمثلة كثيرة عن كاتبات تباينت مواقفهن من الزواج فضلا عن الإنجاب، وقد حلقت «شفق» في مشارق الأرض ومغاربها لتأتينا بأمثلة تاريخية وواقعية مثل: صوفيا تولستوي، آين راند، سيلفيا بلاث، زيلدا فيتزجيرالد، دوريس ليسينغ، دوروثي باركر، وبذلك وثق الكتاب جوانب متعددة من سير هؤلاء! والحقيقة أنها أسرفت كثيرا في ضرب هذه الأمثلة، وكان يكفيها بضع إشارات يسيرة!

على أنَّ فطرة شفق قد انتصرت في النهاية؛ فقررت الزواج والإنجاب؛ لتدخل بذلك مرحلة جديدة من مرض معروف هو «اكتئاب ما بعد الحمل»، وتتصور شيطانا يُفسد عليها حياتها ويُشعرها دومًا بالقلق على صغيرتها «شهرزاد»، وبعد فترة من العلاجات والمقاومة النفسية تنجح الأم الكاتبة في السيطرة على شيطانها؛ بل وعلى «فتيات الأصابع» الذين سببوا لها حالة من التشويش وعدم الاستقرار!

لقد حسمت شفق الصراع بين الحليب الأبيض الناصع، وبين الحبر الأسود الذي عشقته حتى صار كل حياتها، وزاوجت بين الاثنين؛ فاختارت الحليب متمثلا في الأمومة، والسواد الذي هو في الحقيقة حبر القلم، لتكون بذلك «الكاتبة الأم»، وبالغت في الأمومة فأنجبت مولودها الثاني «زاهر».

إذا كانت الكاتبة قد صدمتك في البداية برأيها الذي توجزه بقولها «التسليم بأن الله تفرد بالوحدة في أعاليه، وأن البشر بالتالي ليس في وسعهم أن يخوضوا الحياة وحيدين؛ بل عليهم أن يتزاوجوا، هو أكبر

وَهْمٍ ابتكره الإنسان على مر التاريخ، فقط لأننا صعدنا مركب نوح اثنين اثنين، لا يعني أبدا أن علينا إكمال الرحلة على نفس الحال»؛ فإنها في نهاية الأمر تعدل عن ذلك الرأي قائلة: «هناك سببٌ لتقول ما لا يُحصى من النساء بأن الأمومة هي أحسنُ ما جرى عليهن في الحياة».

بعض الناس يرى كتاب «ألف» مجرد مذكرات وليس رواية بالشكل المتعارف عليه في الأجناس الأدبية؛ والحقيقة أنها رواية مزجت بين الواقع الذي عاشته المؤلفة وبين الخيال الجامح الذي تجيده.

بقي أن نشيد بترجمة الأديب السعودي أحمد العلي التي بدت رشيقة وقشيبة لا تقل عن ترجمة خالد الجبيلي لرائعتها «قواعد العشق الأربعون» و«لقيطة إستانبول»، ولا عن ترجمة محمد درويش لرواية «الفتى المتيم والمعلم»، على أن ظهور اللهجة الخليجية في ثنايا الرواية لم يكن محبذًا من وجهة نظري!

الفتى المتيم والمعلم

رواية جيدة في مجملها؛ وإن كانت هناك من ملاحظات يمكن الإشارة إليها سريعا على هذا النحو:

1. تدور أحداث الرواية في القرن السادس عشر الميلادي حيث عهد السلاطين العثمانيين، وتبدأ الأحداث بالتزامن مع خلافة سليمان القانوني، وقد أحسنت شفق رسم روايتها في هذا الإطار الزمني من التاريخ، فكانت على دراية بأحداثه التاريخية وعاداته وتقاليده الاجتماعية، كما كانت على علم كبير بمواسم الزراعة والإزهار، وحياة الحيوان لا سيما الفيل الذي ولجت في داخله بشكل ساحر، وأحسنت تقديم حالة من التوحد بين الفيل «شوتا» ومروضه «جَهان»، وكذا علم العمران والهندسة.

2. انتقت شفق من الروايات التاريخية ما يخدم اتجاهها المناهض للخلافة العثمانية معتمدة على روايات غير صحيحة وأخرى أساءت تأويلها، وإن كان من حقها أن تغير في الأحداث التاريخية مراعاة للحبكة كما أشارت في الخاتمة؛ فليس من حقها أن تلتقط الروايات المسيئة وتنظمها في رواية تتهم فيها الدولة العثمانية بالوحشية والعنصرية والنفعية والإسراف، نعم كل هذه الصفات لا يخلو منها بلاط الحكام، أما أن تكون ديدنًا فليس ذلك إنصافًا، وكأن البديل في إقصاء الدين عن حياتنا العامة.

3. الرواية -وإن كانت أكثر حجمًا وجهدًا- تعتبر أقل من الروايتين السابقتين «قواعد العشق الأربعون» و«لقيطة إستانبول» في حبكتها، نعم قدمت جانبًا إنسانيا فريدًا ونمطًا يستحق العطف متمثلا في «جَهان» مروِّض الفيل، و«سنان» المعماري الشهير وغيرهما، لكن الرواية لم تكن جاذبة بالقدر الذي بدت عليه الروايتان الأخريان «قواعد العشق الأربعون» و«لقيطة إستانبول».

4. بلغت صفحات الرواية (607 صفحة) وهو حجم ضخم كان من الممكن اختزاله في (400 صفحة) على الأكثر، ولكنها توسَّعت في التفاصيل بشكل لافتٍ للنظر، فجاء الإيقاع بطيئًا للغاية، لكن الحق يقتضي القول إن شفق عندما تغوص في التفاصيل لا تبعث على الملل كما يفعل كُتَّابُنا رغم أنك تجدها في «لقيطة إستانبول» مثلا تفرد عدة صفحات لمكونات أكلات أمريكية أو تركية وطرق تحضيرها.

5. استخدمت الرواية تقنيات سردية متنوعة؛ لكن تبقى «قواعد العشق الأربعون» الأكثر فنية وتميزًا!

6. كما العادة عند شفق؛ لم يغب صوت الحكمة عن هذه الرواية، إذ بإمكانك أن تمسك قلمًا فسفوريًا لتظلل عباراتٍ حِكميةً أنيقة السبك والصياغة هي بعض خلاصات التجربة الإنسانية.

7. من يطالع ترجمات روايات شفق يوقن تمامًا أن خالد الجبيلي هو أفضل من يترجم لها؛ رغم أن الدكتور محمد درويش قد أجاد في ترجمته؛ لكن يبقى الجبيلي الأقرب إلى القارئ باتحاده مع أدب شفق.

8. ختمت الكاتبة روايتها بعبارة بديعة تقول فيها: «لقد توصلتُ إلى الاعتقاد بأننا إذا وصلنا شكلًا واحدًا؛ فإنه شكل القبة، في هذه

الأشكال تتلاشى كل الفروق، ويمتزج كل صوت مميز، حزينًا كان أم بهيجًا، بصمتٍ كبير قوامه الحب الذي يطغى على الكل. عندما أُفكر في هذا العالم على هذا النحو أشعر بالدوار وبالحيرة، ولا أستطيع أن أحدد أين يبدأ المستقبل وأين ينتهي الماضي ، أين يسقط الغرب وأين ينهض الشرق».

9. الرواية في مجملها رائعة وتستحق القراءة لمن يملك الوقت الكافي لقراءة 600 صفحة من العيار الثقيل، لكن تبقى شفق مفتقرة إلى الموضوعية ومفتقدة الإنصاف في هذه الرواية!

❊ ❊ ❊

كارم عبد الغفار.. راوية الريف

هو صوت الريف الصارخ في البرية..
عن طينه وزروعه يتحدث، ومن معاناته ينطلق..
يبدع بروح الفلاح الذي لوحته شمس هذا الوطن..
كارم عبد الغفار روائيٌ من طراز فريد..

يملك أدوات الروائي، وعلاجات الطبيب، وتحليلات السياسي، كما يملك حكمة التاريخ، وناصية اللغة، ومع هذا وذاك قلوب قرائه..

يقول كارم في إهدائه لروايته الأخيرة «جراب الخضر»: «أهدي هذه التجربة لأحبابي أبناء الغيطان ورفقاء القيلولة ومشاكسات الأجران من جيل الثمانينيات، مواليده وفتيانه؛ فكل سطر به لقطةٌ من زينة أيامهم، أو شيءٌ من عطر آبائهم، أو ضحكة صافية يودون لو عادت إليهم أو عادوا إليها».

وهذه الرواية هي الأخرى تقصُّ علينا نبأ الطبقة الكادحة المطحونة في ريف مصر مع استحضار نموذج الخضر وقضية القضاء والقدر، وهي قضية فلسفية شائكة في طرحها وتناولها!

قرأت لكارم أول ما قرأت رواية «مستورة» وهي حالة إنسانية شديدة الأسى.. وصورة حية وواقعية للعزيمة والإصرار، الرواية كتبها صاحبها ليجسد بها قصة مستورة التي هي جدته لأمه، تقلبت على جمر الأسى طيلة حياتها، واكتوت بنار الزمن فلم تزدها إلا بريقًا..

حتمًا سترِق لحال مستورة، وحتمًا ستبكي لمأساتها، وكارم -وإن كان من جيل الشباب- فإنه صوت الحكمة في أعماله مسموع؛ إذ لا يعتمد على السرد فحسب!

هذه الرواية وأخواتها تكشف عن روائي متقن ذي ثقافة موسوعية، فهو اللغوي الأريب، والمحلل السياسي، فضلا عن إحاطته بجانب كبير من الفلكلور المصري الأصيل!

فمثل كارم جدير بالدراسة، ومثله جدير بالحفاوة، ومثله جدير بقصب السبق لو كان هناك عدل!

الرواية لماذا؟!

عاتبني بعض مَن أُحبُّ من الأصدقاء فيما قالوا إنه إضاعة وقتي في قراءة الروايات الأدبية..

والحقيقة أنني أحسن استثمار وقتي إلى حدٍّ ما، وكم من رواية قرأتها كاملةً في السفر من القاهرة وإليها، ناهيك عن التنقل داخلها.. وكذلك ساعات الانتظار في العيادات الطبية وغيرها من مواطن إضاعة الوقت.

والحق يقال: رُبَّ روايةٍ كانت في الناس أكثر تأثيرًا من مئات الكتب!

إن قراءة روايةٍ واحدةٍ تضيف إلى الإنسان خبرات حياتية واسعة وثقافات أخرى مختلفة ما كان له أن يتحصَّل عليها ولو بشق الأنفس!

وأخيرا؛ فتخصصي في النقد الأدبي، ومحاولتي كتابة أعمال إبداعية يجعلاني أحرص على قراءة هذا النوع من الإبداع بغية الاستفادة منه وتوظيفه بالشكل اللائق..

ونصيحتي لمن لا يحب القراءة: ابدأ بالروايات القصيرة وستشجعك على قراءة غيرها من الكتب!

والسلام على من سمع وانتفع!

باب في إنقاذ الكتب وإغراقها

المشهد (2):

السيدة العراقية التي أنقذت مكتبة البصرة من الدمار أيام حرب العراق..

هرع العساكر العراقيون إلى المكتبة لينصبوا فوقها معداتهم وصواريخهم استعدادا لمواجهة العدو؛ فاستأذنتهم في نقل الكتب خشية الدمار؛ لكنهم -كالعادة- رفضوا لأنهم لا يكترثون بالكتب!

تسللت السيدة ليلا ومعها بعض المتطوعين لتنقل الكتب إلى بيتها وتُنقذ آلاف الوثائق والمخطوطات والكتب قبل أن يتفجَّر المبنى تمامًا!

وحفظت المرأة المكتبة من مصير كمصير كتب بغداد في زمن التتار!

المشهد (1):

حدثني أحد أساتذتنا الأكارم أن رجلًا مات في مصر ولم يعقب ولدًا.. وجاء الورثة يُهرعون إلى الميت لا ليشيعوه؛ ولكن ليتوارثوه!

باعوا بيته وتركوا الكتب للساكن الجديد!

عبثًا هاتف الساكن الورثة ليحملوا كتب المرحوم التي يزدحم بها المنزل؛ فما شأنه بكتب لا يعرف لها فائدة في دنياه!

لم يُعره أحدهم اهتمامًا؛ فقد قسَّموا الجنيهات فيما بينهم، ثم انصرفوا، صرف الله قلوبهم!

ألح الرجل في الطلب فلما أيس منهم ضرب لهم موعدًا ليتسلموا

تركتهم الحيْرَى وإلا ألقى بها في اليمِّ.

فهل حرَّك ذلك ساكنًا؟!

كلا!!

وفَّى الرجل بيمينه ولم يحنث؛ وجعل يحمل مئات الكتب ويُلقيها في اليَمِّ بلا هوادة!!

يقول الــراوي: وقابلني أحد الخلق فقصَّ عليَّ ما كان من شأن المذبحة؛ فأسرعتُ حتى انقطعت أنفاسي؛ فأدركتُ منها من نوادر الكتب والحواشي ما أعجز عن إيجاده، وقضى الباقون غرقى بأيدي المسلمين، وليس بيد التَّتَار!

هل تموت الكتب؟!

أمس دار حديث مطوَّل مع زوجتي المصون حول المكتبة والكتب، فقلت لها عندما أموت بإذن الله قريبا أوكلي أمر المكتبة إلى الأصدقاء هنا على الصفحة، فلا جرم أنهم سيعقدون معرضا لبيعها (الكتب وليس الصفحة طبعًا) عبر الفيس بوك وتويتر وغيرها من وسائل التواصل التي كنت أعمل بها ليل نهار .

أو دعيهم يحملونها إلى القاهرة ليشتري منها الخمسة آلاف صديق هنا والمتابعون دون صداقة وهم ألوفٌ. ويُكتب إعلان مُموَّل للبيع: إلى الذين كانوا يقرأون منشورات الراحل مجانا، ولا يُحصِّل منهم إلا الإعجابات والمشاركات.

إلى هؤلاء الذين كانت تصلهم مؤلفات المرحوم «ديليفري» داخل مصر وخارجها، ولا يشترون حتى كتاب المجلة العربية بجنيهاته الثلاثة..

إلى الذين كانوا يتحصَّلون على النسخ بصيغة إليكترونية قبل أن

يبلغ الكتاب أجله!

إلى الذين كانوا يرمون الرجل بما ليس فيه من الدنانير والدولارات والريالات ويتقولون عليه الأقاويل دون سند بنكي ولا دليل ماليٍّ ظاهر ..

إلى متابعي المرحوم على فيس بوك وتويتر وما خفي من الانستجرام وغيرها من المواقع التي كان المرحوم يجهلها.. حان وقت الوفاء..

دقت ساعة العمل..

دقت ساعة العمل!

نسألكم الفاتحة

أبنائي والكتب

كلما ولجتُ مكتبتي العامرة، ورُحتُ أتنفس شيئًا من عبق ترابها، وأسندتُ ظهري إلى كرسِيِّ الأثير، وطفقتُ أهتز في نشوة لا مثيل لها، وجُلْتُ بناظري بين أرففها؛ طنَّ في أذني صوت أحد أبنائي يوسوس إلى أخيه: إنَّ أباك يُضيع ماله في شراء هذا الرُّكام من الكتب، فهلا أنفَقَه -وهو القليلُ- في شأنٍ مفيدٍ بدلًا من هذا الهراء؟!

يا إلهي!

رفقي يا أولادي!

لا تكونوا عونًا للشيطان على أبيكم!

لا تكونوا ظهيرًا للطغاة على أبيكم!!

يا أبنائي..

نَعَم.. الثقافة والفكر لا يُطعمان الخبز إلا إذا غُمسا بالخمر والدماء؛ فهل ترضيان لأبيكما أن يُدير كأسه ويثمل، أو يركنَ إلى الذين ظلموا؛ فتكون له الحُظْوةُ والسَبْقُ؟!

يا خالد:

ما عساي أن أفعل وأنا أعيش في «أُمَّة اقرأ» التي لا تُوقِّر علمًا ولا تُعظِّم فكرًا!

أيا ماجد:

الأمل فيكم ألا تكونوا مثقفين أسرى لكلمة؛ بل ابتعدوا عن الثقافة

والفكر ما استطعتم إلى ذلك سبيلًا، وعيشوا كما يعيش الناس بحثًا عن لقمة العيش!

ويا عُمَر:

تذكَّر دائمًا أن أباك قد خسر كل شيء إلا نفسه؛ وهذا مكسب لو تعلمون عظيم!

ويا أمَّ البنين.. أستميحك العُذْر؛ فقد رضيتِ برباطٍ مقدَّسٍ يربطك بمَنْ رأسُ مالِهِ الثَّلْج!!

* * *

أي بُنـي

أي بُنَي

إنَّ جدَّك لم يَمُتْ طالما ظلت في الناس سيرته عطرة لا تشوبها شائبة!

أرأيت كيف يلهج الناس بالحديث عن علمه وحلمه، عن تواضعه.. عن مودته وذوقه، عن تسامحه وعطفه، عن شجاعته ورجولته، عن حبه للحق وأهله؟!

«لمثل هذا فليعمل العاملون»

أي بُنَي

كان جدك آيةً في التواضع، لم يصعِّر خده للناس ولم يمش في الأرض مرحًا، كان يخفض جناحه قائلًا: ولِمَ التكبُّر على خلق الله وقد خُلقنا من الأرض وإليها نعود؟! فلم يزده تواضعه إلا رفعة في قومه وحبًّا في قلب مَنْ عرفه!

رأيته مرة وقد شمَّر عن ساعده وأخذ ينظِّف ميضة المسجد؛ فقلت له: كيف تفعل هذا يا سيادة المدير وهناك عمالٌ تُوكَّل إليهم هذه الأعمال؟! فقال: هذا مسجد الله وليس العمال!

أحدثني من أثق به أنه كان ينظف فناء المدرسة؛ بل دورات المياه بمعاونة العمال وهو مديرها، وأقسم زميل له أنه رآه يقوم بمعالجة مياه المطر في فناء المدرسة بعد أن لبس في يديه بعض الأكياس البلاستيكية!

أي بُنَي

كان جدُّك يوقر الناس ويُنزلهم منازلهم، وقد رأيتُهُ يقبِّل يد أخيه الذي يكبره بسنواتٍ، وأبصرتُ أخاه وقد أسرع إلى نعلِ أخيه يجرُّه إليه حين هَمَّ بالانصراف؛ فوضعه أمام قدميه، فانكبَّ جدُّك على رأس أخيه يُقبِّلها مستغفرًا!

وما شاهدته جلس في غير اعتدالٍ ولا رفع صوته بضحكةٍ في حضرة إخوته ولو كان فارق السنِّ يسيرًا!

لقد كان رحيمًا بهم، يبرهم بره بأبيه رحمه الله!

هكذا عاش جدُّك يا بُني، وهكذا فلتكن!

أي بُنَي

كان جَدُّك من أحلم الناس وأكثرهم رفقًا ولينًا، وما رأيته معنفًا أحدًا إلا في عظائم الأمور.

قال لي مرةً: بسمةٌ صادقةٌ تزيل كثيرًا من خَبَثِ النفوس!

رحمك الله يا أبت!!

أي بُنَي

أدرك جدك كثيرًا من مجد أبيه وغناه، ثم شاهد بنفسه كيف ضاعت ثروته وتبدَّدت، وعاني في سبيل ذلك كثيرًا!

لكنه كان يردِّد دائمًا: إن كانت أرض أبي الشاسعة التي تحدَّث بها الخَلْق قد تلاشى أكثرها؛ فقد ترك لنا ميراثًا من العلم لا يدانينا فيه أحدٌ؛ وهو خير لنا من ملء الأرض ذهبًا!

وكان دائم الاعتزاز بعلم والده الشيخ جبريل الأزهري، وكثيرًا ما كان يحتفي بتلاميذ أبيه، يحبهم ويأنس بهم ويتفقد أحوالهم، ومات وهو يحزن لفراق بعضهم ممن غيَّبهم الظلم!

كان جدك حفيًّا بالعلم وأهله.

رأيته بعينيَّ هاتين يُقبِّل يد عالِمين في مثل سِنِّه؛ فلما عاتبته قال:

حبًا للعلم وكرامة لأهله!

هكذا كان حبُّ جدِّك للعلم؛ فكن يا بُنيَّ حريصًا على العلم والتعلم!

أي بُنَي

كعادة الناس يعرفون للحق وجوهًا كثيرةً، ويرتدون لكل وجهٍ قناعًا؛ لكنَّ جدَّك لم يعرف للحق غير وجهٍ واحدٍ، فأُوذي في سبيل ذلك فصبر، وأُسيء إليه فغفر؛ فكان مثالًا للعفو والتسامح!

وما ضرَّ جدك أن جاء الحقُّ على لسان غيره، ولا نقص من قدره أن يعلن اعتذاره عن مجانبة الصواب له!

كان قلبه خاليًا من البغضاء والشحناء، حتى كنتُ أقول له: هل نسيت إساءة فلان؟!؛ فيقول: نعم، وعليك أيضًا أن تنسى؛ «ألا تُحبُّون أن يغفر الله لكم»؟!

لقد كان المرء يُسيء إليه رغم ما له عليه من فضل ثم يلقاه كأنَّ شيئًا لم يكن!

وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلبٌ!

هكذا كان جدك يا ولدي؛ فكنْ مثله في العفو والصفح، والرجوع إلى الحق!

أي بُنَي

كان جدُّك أبعد الناس عن الغيبة والنميمة؛ وما رأيته يومًا متتبِّعًا خبر أحدٍ ولا متقصِّيًا شأنه، جاءه أحد الناس يعوده في مرضه فخاض في الحديث ظنًا منه أنَّه نائمٌ لا يسمعه؛ فما كان من جدك إلا أن ولَّاه ظهره مُبديًا امتعاضه، ثم إنه لما انصرف ناداني قائلًا: احجب عني فلانًا هذا؛ ففي مجالسته الهَلَكَة!

هكذا كان جدك يا بُني فلتكن مثله!

أي بُنَي

كان جدك عاشقًا للعربية محبًّا لها، متذوِّقًا للشعر حافظًا له!

كم كان يفاجئنا بمحفوظه من قصائد المتنبي وأبي فراس الحمداني وعمر الخيام ومحمد إقبال وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم!

في الصباح يقول لي:

قم فما أطال النوم عمرًا ولا قصَّر في الآجال طول السَّهَر

وإذا رأى مني ما يكره قال:

صلاحُ أمرِكَ للأخلاقِ مرجعُهُ فقوِّم النَّفسَ بالأخلاقِ تستقِمِ

وهكذا كان يحيا باللغة وتحيا فيه!

لم يكن أشق على نفسه من أن يستمع اللغة وقد انتُهك سِتْرها، فرُفع منصوبُها وخُفض مرفوعُها، ولم أره أكثر تأذِّيًا من شيءٍ كما كان يتأذَّى ممن اعتلوا المنابر وأصمُّوا الآذان بلغتهم الركيكة!

كانت الحسرة تملأ قلبه ويشكو من تدهور التعليم في مدارسنا ومن

مستوى المدرسين الذين وُكِّل إليهم تعليم أولادنا!

قبل وفاته بأيام قليلة سمع أحد المذيعين يُخطئ في اللغة فحوقل؛ فسأله شريف كساب عن سبب امتعاضه؛ فقال له: أرأيتَ كيف نصبَ ما كان حقه الجرُّ؟!

أي بُنَي

كان جدك من أكثر الناس حبًا للنبي الهادي -صلى الله عليه وسلم- وتعظيمًا له!

وكان من عادته إذا فَجَأَه أمرٌ مُحزِنٌ أو مُفرِحٌ صاح قائلًا: حبيبي يا رسول الله!

وما رأى مقام النبي -صلى الله عليه وسلم- ومسجده إلا فاضت عيناه من الدمع صبابةً وشوقًا!

وكلما رأى مسافرًا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- غاضت الكلمات في فمه وقال له وقد ملأت الدموع مقلتيه: أقرئ رسول الله مني السلام، ثم ردَّد أبياتًا من قصيدة شوقي الشهيرة «إلى عرفات الله» ومنها قوله:

إذا زرتَ بعد الموت قبرَ محمدٍ ... وقبَّلت مثوى الأعظُم العطراتِ

وفاضتْ مع الدمع العيونُ مهابةً ... لأحمدَ بين السِّترِ والحُجُراتِ

وأشرقَ نورٌ تحتَ كلِّ ثنيةٍ ... وضاعَ أريجٌ تحتَ كلِّ حصاةِ

اتصل بي صديقي الأستاذ محمد عرفة من المدينة المنورة وقت أن كان جدُّك في شدة من مرضه فسألني إن كان الوالد يريد شيئًا؛ فسألته: قال

أوصه أن يُبلغ رسول الله مني السلام، ثم فاضت عينه من الدمع اشتياقًا حتى ارتفع نحيبه!

أي بُنَي

كان قلب جدِّك معلقًا بالمسجد، يُبكِّر إليه في انتظار الصلاة بعد الصلاة!

نعم هنا كان يجلس أسفل شجرة التوت العظيمة في المصلى، ثم رأي المسجد يضيق بالمصلين، فسعى مع غيره في قطع الشجرة حتى يتسع، فجزع بعض الناس وقالوا: كيف لنا أن نقطعها وقد تربينا تحتها صغارًا وتوارثناها عن الأجداد؟! قال جدك: فلتستغفروا الله وإلا كنتم كأصحاب «الشجرة الملعونة في القرآن»؛ فما هي إلا شجرة لا تملك ضرًّا ولا نفعًا.

حذروه من عاقبة قطعها؛ فضحك، ثم قطعت، وأضيف المصلى إلى المسجد ولم يحدث لمن قطعوها ما حدث لقتلة ناقة صالح؛ فعلموا أنَّ العلم نور، وأنَّ الإيمان عاصم لأصحابه!

واليوم لا يكفُّون عن الدعاء له بالرحمة والمغفرة!

أي بُنَي

سترى وُشُوشًا كالحةً، ووجوهًا عليها غبرة تعرفهم بسيماهم وفي لحن القول!

سيقولون لك: ليست مصريَّةً، والخرائط والوثائق تُثبت ذلك!

قل لهم: خسئتم!

لا أصدِّق إلا تلك الخريطة التي حفرتها (البيادة) في قدميْ جدِّي وذهبت ببعضها حين حارب وعَبَر، وظلَّت شاهدةً على جهاده

لتحرير الأرض والحفاظ على العِرض حتى مات!

ولا أكترث بوثائق وقد شاهدتُ دموعه تتحدَّر على خدَّيه كلما حانت ذكرى العاشر من رمضان!

فيها فَقَدَ أصحابه الذين قضوا نحبهم في معركة الكرامة!

فهل بعد ذلك وثيقة؟!

قل لهم أيضًا: إن التاريخ سيلعنكم.. نعم، سيلعنكم لعنًا كبيرًا!

وستقفون بين يدي الله يومًا، وأصيح حينها «وقفوهم إنهم مسؤولون»، حينها ستعتذرون فلن يُؤذن لكم!

أي بُنيَّ

قلت لي: أبي... احكِ لي عن نفسي وأنا صغير!

لا أدري لماذا أردتَّ إثارة شجوني وتجديد أحزاني!

ذكَّرتني يوم كنتُ جالسًا مع أبي -رحمه الله- خارج حجرة العمليات ننتظر قدوم الصغير!

في كل مرة تضع زوجتي وليدها يجلس منتظرًا من الله الفَرَج!

يلهج لسانه بسورة (يس) وأدعية كثيرة لا أسمعها!

لا أنسى دموعه الحرَّى التي كانت تنهمر في صمت حتى تكاد تشق خدَّيه شقًا!!

ولا جسده الذي كان ينتفض كعصفور بلَّله القطر!

كانت حماتي -رحمها الله- أكثر ثباتًا منه، لمحت الدمع ينهال من مقلتيه فقالت في تؤدة بالغة: «طوِّل بالك يا أستاذ عبد الماجد واستهد بالله، إن شاء الله تقوم بالسلامة ويتربوا في عزَّك»

لحظات وتخرج الممرضة بالطفل الصغير فيشتد بكاؤه، ثم يحمل الصغير بين يديه المرتعشتين ويؤذن في أذنيه!

لم يكن بكاؤه يتوقف حتى تفيق أم البنين سالمة من سَكراتها!

حكيت ذلك لك يا صغيري فهُرعتْ إلى أمك تقص عليها ما سمعتَه من حديث الجد.. فقالت لك: نعم يا صغيري.. حدث بالفعل.. وأكثر مما تقول؛ كان نعم الأب والجد والزوج.. أفتقده كثيرًا والله!

السِّيرَةُ الذَّاتِيَّةُ

- وليد عبد الماجد جبريل إبراهيم كساب.
- يُعد الآن أطروحته لنيل درجة الدكتوراه في الأدب والنقد .
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- عضو اتحاد كُتَّاب مصر.
- عمل مديرًا لإدارة التنسيق والمتابعة برابطة الجامعات الإسلامية.
- عمل مديرًا لإدارة البرامج والمحتوى ونائبًا للمشرف العام بـ«قناة أزهري».
- نشرت له عدة مقالات ثقافية وسياسية وأدبية واجتماعية في كثير من الصحف والمجلات، منها: الأهرام «مصر»، والأهرام المسائي «مصر»، ومجلة الجامعة الإسلامية «مصر»، والحياة «لندن»، ومجلة الدعوة «السعودية»، ومجلة الأدب الإسلامي «السعودية»، وصحيفة الدعوة «ليبيا»، والوعي الإسلامي «الكويت».
- شارك في عدة مؤتمرات ومناشط علمية بمصر والسعودية وتركيا واليمن وقطر وليبيا والسودان، كما شارك في اللجان التحضيرية لما يربو على مائة فعالية برابطة الجامعات الإسلامية.
- عمل مديرًا لتحرير مجلة الجامعة الإسلامية «فصلية، علمية، محكمة»، بالإضافة إلى عدة سلاسل علمية أخرى، منها: «فكر المواجهة»، و«دراسات الأسرة»، و«الدراسات الحضارية»، كما عمل عضوًا للجنة تطوير المناهج برابطة الجامعات الإسلامية.

الكتب والدراسات المنشورة

1) تحت الرماد (أوراق من السيرة الذاتية لمحمد سعيد العريان)، كتاب «المجلة العربية»، رقم 263، ذو القعدة 1439 هـ = يوليو 2018.

2) من قضايا الهوية في أدب مصطفى صادق الرافعي، نادي المدينة الأدبي، المملكة العربية السعودية، 1439 هـ - 2018م.

3) مقامات ابن كساب: حديث عامر بن محتاس، دار البشير للعلوم والثقافة، القاهرة، 2017م.

4) مقالات الرافعي المجهولة (ج 1)، كتاب «المجلة العربية»، رقم 242، صفر 1438 هـ = نوفمبر 2016.

5) مقالات الرافعي المجهولة (ج 2): كتاب «المجلة العربية»، رقم (249)، رمضان 1438 هـ = مايو 2017م.

6) تأملات في أدب الرافعي، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 2016.

7) المريد «في صحبة عبد الحليم عويس»، دار البشير للثقافة والعلوم، 2015.

8) التلوين البلاغي في الخطاب القرآني، سلسلة روافد، الإصدار (120)، شوال 1436 هـ = 2015، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.

9) مسرحية حسام الدين الأندلسي للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، تقديم وتعليق، دار البشير للثقافة والعلوم، 2015م.

10) أبو عبيدة بن الجراح: رجل السقيفة وفاتح بيت المقدس، دار اليسر، القاهرة، 2010م.

11) الفكر السياسي بين ابن حزم الأندلسي وأبي حامد الغزالي، بالاشتراك مع أ.د عبد الحليم عويس، دار الكلمة - القاهرة، 2010م.

الدراسات المنشورة

- الحالة الدينية في مصر 2010-2014، مركز دال للأبحاث والإنتاج الإعلامي، 2017م.
- يوسف نوفل «الإبحار في الذاكرة»، «مُؤلَّف مشترك»، دار سندباد - القاهرة 2016م.
- التسامح في الفكر الإسلامي «مُؤلَّف مشترك»، رابطة الجامعات الإسلامية، 1425هـ = 2005م.
- قضية الفقر وكيف تناولها أدب مصطفى صادق الرافعي «دراسة» مجلة الأدب الإسلامي العددان (43، 44)، 1425هـ = 2004م.
- الإسلام في مواجهة الإرهاب «مُؤلَّف مشترك» رابطة الجامعات الإسلامية ـ 1424هـ = 2003م.

أهم الجوائز الحاصل عليها

جائزة المسابقة الإسلامية العامة بوزارة الشباب لعام 1998م، وجائزة العمرة من وزارة الشباب، والمسابقة الإسلامية العامة لعام 1999م، وجائزة المسابقة القومية في المناسبات الدينية بوزارة الشباب لعام 1999م، والميدالية الفضية في المسابقة الدينية للقادة بوزارة الشباب لعام 1999م، والميدالية الذهبية في المسابقة الدينية للقادة بوزارة الشباب لعام 2000م، وجائزة مؤسسة اقرأ لعامي 2001 و2002م، وجائزة من مركز الشيخ صالح كامل للاقتصاد الإسلامي لعام 2002م.

والله ولي التوفيق

فهرس المحتويات

فاتحة 5
من طيف الذكريات 9
العفاريت الزرقاء 11
على ظهر الجَمَل 20
الشيخ والكرنبة 22
في ضيافة القذافي 27
صنعاء وإن طال السفر! 32
طي النسيان 41
في الملعب 45
المجاز في حياتنا 48
من وحي القبور 50
النَّقدُ المجاملاتي 52
المجذوب 54
علامَ تتقاتل الطيور؟! 56

فسادٌ بنكهة إسلامية 58
غرفة جَدِّي 60
الأوتوموبيل 62
أنا المهدي المنتظر 65
بعيدًا عن السلاطين 67
جعلوني متحرشًا 70
شبح الموت 73
الملك المظلوم 74
مؤتمر وذكريات 77
فضائيات البطاطين 80
فتوة شيخ 88
حظيرة الدجاج 91
خواطر عمَّالية 93
رحيل الجد 97
معلم الفقراء 101
رحيلٌ وإفلاسٌ 105
ذكرى مؤرِّقة 108
الناجية بصمتها 110

قامات وأعلام 113
الشيخ الغزالي وجَدَلُ لا ينتهي 115
المحلاوي.. الزاهد 119
إنهم يسرقون كامل كيلاني 123
محمد عمارة: رجلٌ من فولاذ 126
الحيُّ عبد الحي 128
الفقيه المنياوي 131
رومانسية الدكتور عبد الصبور 133
محمود عمارة: أديبُ الدُّعاةِ 136
مجاهد الجندي.. مؤرخ الأزهر 138
أدهم: شمسٌ لا تغيب 141
في الأدب والكتب 145
المَقَامَةُ الأدبيَّةُ من الازدهار إلى الاندثارِ 147
عبد الله عسيلان.. عندما تُعشق الكتب 157
ساق البامبو.. الإغراق في الإنسانية 164
قواعد العشق الأربعون 172
حليب أسود 174
الفتى المتيم والمعلم 177

كارم عبد الغفار.. راوية الريف 180
الرواية لماذا؟! 182
باب في إنقاذ الكتب وإغراقها 183
أبنائي والكتب 186
أي بُني 189
السِّيرَةُ الذَّاتِيَّةُ 199